من سلسلة
حكايات على ضفاف الخليج
حـــوار
علـى ضفـاف الخليج الجـزء الثاني
تــأليــف
محمد عبد العزيز أحمد الباكر
الطبعة العشرون يناير 2008
إهـداء
- إلى غرشة العطر التي يفوح أريجها داخل روحـي.. إلى تميمة عمري وأوتار مشاعري..
- إلى الزهرة الندية التي تزين أركان بيتي بعطرها وجمالها وضحكها وصراخها..
- إلى خاتمة الحب والعمر..
- إلى الـتـوقيع الذهبـي على وثيقـة العــاطفـة والحــنان والأبوة والنبل..
- إليك يا خلاصة العطر الممزوج بالحنان.. ويا واحة تلاعب أشجارها وزهورها نسمات الربيع الآتي..
- إليك يا موزة أهدي هذا العمل علني أكون قد ساهمت بلبنة في جدار الفضيلة وبنيان القيم والأخلاق..
هذه رسالة لك ولكل بنات جيلك هدية من قلب أب ينبض بحب كل أبناء الوطن وبناته.
محمد عبد العزيز أحمد الباكر

]
المقــدمة
عزيزي القارئ الكريم: ربما كان من الواجب، بل من صميم الواجب، أن نرقب حركة التطورات الإنسانية في مجتمعاتنا والتي تطرأ بفعل المؤثرات والمستجدات التاريخية التي تحتم مسايرة المجتمع الإنساني ماديا وحضاريا والتي تفرز بالتالي سلبيات ومفاهيم دخيلة تتعارض مع جوهر وركائز مجتمعنا العربي المسلم وهويتنا الحضارية المبنية على أسس راسخة ومقدسة من العقيدة الإسلامية السمحة والتقاليد العريقة والعادات والمفاهيم الإنسانية الأصيلة.
وعليه فإن الالتزام الأخلاقي بالانتماء لهذا المجتمع يحتم، بل ويفرض علينا أن نجابه معاً كل هذه السلبيات التي تهدد أغلى ما نملكه من كنوز القيم ونفيس التراث بالخطر.
وباعتقادي أن ذلك هو قدر كل إنسان يحمل مشاعر صادقة بالانتماء لمجتمعه وتراثه وتاريخه. إننا جميعًا شركاء متساوون في تلك المسئولية المقدسة التي تضع القيم الروحية والأخلاقية والهوية الإنسانية للمجتمع العربي المسلم ضمن أغلى وأسمى الأهداف باعتبار أن كل ما في حياتنا زائل ونحن زائلون ولن يتبقى سوى ما غرسته أيدينا ليحصد ثماره الأبناء والأحفاد من بعدنا. عزيزي القارئ يبقى أن تعلم أن هذه المجموعة من الحكايات كتبت ضمن مجموعتي الأولى التي صدرت في مطلع هذا العام وكان قراري خلال طباعتها أن تصدر في مجموعتين منفصلتين حرصًا على راحتك وحفاظًا على ود بيننا لن تنقطع أواصره.

محمد عبد العزيز أحمد الباكر

فحيح الأفاعي
كانت طيور النورس تتجه غرباً صوب قرص الشمس الذي كان يطفئ لهيب نصفه الآخر في مياه الخليج عند حافات الأفق بعد أن أدى مهمته اليومية الأزلية المقدرة في السماء مانحاً الأرض والبشر والمخلوقات حقها من النور والدفء. وكانت النسمات الندية المحملة برائحة البحر تهب من جهة الشمال ملطفة بلفحاتها الرقيقة من حرارة ذلك النهار، وبالرغم من أن الصيف بطقسه الحار لم يكن قد بدأ بعد، إلا أن الأيام الأولى من شهر مايو شهدت ارتفاعاً ملحوظًا في درجة الحرارة، الأمر الذي حد بشكل كبير من حركة الناس في شوارع المدينة خلال النهار مما دفعهم للانطلاق إلى الكورنيش للاستمتاع بحدائقه الرائعة وبلفحات النسيم الندية الباردة. وبدت مدينتنا في تلك اللحظات المنعشة هادئة كعادتها وطيبة كأهلها تحمل في قلبها أصالتها وبساطتها التي تعودت عليها منذ القدم كما تعودت أرضها أن تعطي خيراتها دون حساب ودون تمييز بين الغرباء وبين أبنائها، كل الناس هنا يعيشون في أمان ورغد حتى قبل الطفرة التي حدثت وقبل أن تفيض الثروة.
أيام الفقر وشظف العيش كانت الأرض بطبيعتها طيبة وكان أهلها أيضًا بأصولهم وتقاليدهم العريقة كرماء وشجعانا. وتوالت بعد لحظات أصوات مكبرات الصوت فوق مآذن المساجد تصرخ بالنداء المقدس: الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله ، داعية البشر إلى الصلاة ومانحة إياهم الأمل في رحمة الله ومغفرته.. وهكذا خمس مرات في اليوم يتطهر جو المدينة وقلوب البشر العائدين إلى حظيرة التوبة بالخشوع والاستغفار.

وبرغم ذلك الجو المشع بالتسبيح والإيمان في مدينتنا إلا أنه وبطبيعة الحياة وسنة الكون كانت الشياطين تعمل جاهدة ودون كلل للوفاء بعهدها لإغواء ضعاف النفوس من البشر ودفعهم دفعًا إلى هاوية الخطيئة مزينة لهم دروبها ومسالكها وميسرة لهم سبلها وصعابها. جلس الرجل على طاولته بالمحل الذي يمتلكه بأحد دواعيس مدينتنا بحجمه القميء ولون بشرته البنية ونظراته التي تنم عن الخبث وتناول سماعة الهاتف وبلغة عربية غير سليمة أخذ يتكلم مع المتحدث على الجانب الآخر وكان يخفض صوته هامسًا من حين لآخر في أثناء حديثه، وبعد أن أنهى مكالمته الهاتفية دق بأصابعه المجعدة أرقام بليب أتبعها بأرقام خاصة بسرعة الرد، ثم أغلق سماعة الهاتف وأخذ يطالع الحائط المواجه وهو ينقر بأصابعه على الطاولة. بعد قليل رن جرس الهاتف وبدأ حديث آخر مع أحدهم، وكان المتحدث على الطرف الآخر إحدى الصبايا، وانتهى الحوار بعد أن اتسعت ابتسامة صفراء واسعة على وجهه نهض بعدها ليستقبل أحد زبائنه.

كان ذلك الرجل ينتمي إلى جنسية شرقية غير عربية وكان ذلك يظهر جليا من خلال لغته الرَّديئة ولكنته في الحديث، جاء إلى بلادنا منذ عشرين عامًا ونجح خلال رحلته في تكوين صداقات وعلاقات ونفوذ وثروة بفضل أساليبه القذرة ووساطاته النجسة التي أهلته ليصير برغم قبح منظره وحقارة شخصيته صاحب مال ملوث بالشرف المسفوح على مذابح الرذيلة. كان مثالاً من أمثلة السقوط الأخلاقي وانعدام الشرف والضمير، لا يفرق بين زوجة صديق أو ابنة صاحب ما دام سقوطها سوف يجلب له منفعة أو مالاً أو علاقة جديدة يستخدمها لتنفيذ استثماره الملوث بنزيف الشرف والفضيلة، بل إنه كان لا يتورع في اعتقادي عن التفريط في شرف زوجته أو ابنته إذا استدعى الأمر وتطلبت المصلحة ذلك.

بدأت خيوط القصة وملامحها حين دلف ذلك الشاب الثري الممتلئ الجسم بشخصيته طاغية الحضور إلى محل ذلك الرجل لإنجاز عمل يتعلق بمهنة ذلك الرجل، وبطبيعة الأمر تم التعارف بينهما كالعادة في أثناء الحديث وتبادل أقداح الشاي. كان الرجل صاحب المحل ماهراً بخبرته في التسلل إلى عقول الرجال والشباب ذوي المكانة والنفوذ والثراء والذي يؤمل فيهم الاستجابة لإغراءاته بتوريد الأجساد البيضاء والنساء الحسناوات إلى مخادع الخطيئة، وكان بطبيعة الحال صاحب شبكة تضم أعدادًا غير قليلة من الساقطات اللائي رمين بأنفسهن في أتون الرذيلة وهاوية الخطيئة من أجل دريهمات قليلة على كثرتها، ومن أجل مظاهر خادعة وزائلة ونزوات حقيرة كان ثمنها دائمًا هو أغلى ما يمتلكه الإنسان وهو الشرف والفضيلة.

ورب متسائل يسأل كيف يصل هذا الرجل إلى عقول الشريفات العفيفات ليشوه ضمائرهن ويضيع شرفهن ويوقع بهن في دروب الضلالة ومسالك الرجس؟؟ والأمر هنا، وكما يقول هو بلسانه، سهل جدا تكفيك امرأة منحرفة باعت ضميرها للشيطان وتخلت عن عقيدتها من أجل مال ضائع أو متاع ولذة زائلة، تريد بضلالتها وقلبها الأعمى أن لا تكون هناك حرة شريفة، وتود لو أن كل العفيفات الشريفات سقطن في حبائل الشيطان مثلها، وعندها رجل ضال ومنحرف مثل هذا الرجل همزة الوصل بين طالبي المتعة الحرام وبين هذه المرأة التي تعرف طريقها تماماً إلى عقول وقلوب الصبايا والنساء بدهائها ومكرها وشرها، واحدة فواحدة عارضة مجوهراتها وملابسها وسفراتها ومتعتها أمامهن بشكل يسيل لعاب الضعيفات، والأدهى والأمر أنها تسلك أيضاً سبلاً غاية في الخطورة حين تعرف بدهائها أن هناك سيدة تعاني من مشاكل مع زوجها، فتستغل تلك النقطة والحلقة الواهية لتنفذ منها إلى مآربها القذرة الدنيئة.

هكذا تتحرك الأفعى لتلدغ الآمنين في لحظة يغفو فيها الضمير ويستيقظ فيها الشيطان ليقبض بمخالبه جسدا طاهرا وروحا عفيفة ليمزقها ويلقي بها في نهاية الأمر أشلاء في أتون الخطيئة والرذيلة.

ابتسم الشاب الثري حين فهم ما يرمي إليه ذلك الرجل، وكطبيعة البشر أراد التثبت من ذلك، والنفس البشرية عادة ما تهتز، وتلك طبيعتها أمام المغريات.

إلا أن ذلك الشاب لم يكن من النوع الذي يسهل سقوطه أمام تلك المغريات، وبالرغم من أنه كان يعاني داخله معاناة نفسية شديدة إلا أنه كان قوي الإرادة صلب العزيمة أمام كل ما من شأنه أن يلحق الأذى بدينه أو ضميره أو سمعته.

كان إنسانًا نقيا ونبيلا وسليل أسرة كريمة تربى أبناؤها على الفضيلة والجد والبعد عن الرذيلة ودروبها، إلا أن العواطف البشرية الجياشة والوجدان الإنساني الرقيق والعطش العاطفي إلى أنثى ارتسمت في خياله وتشكل نموذجها فكانت لهم الكلمة الأخيرة، نعم كان للعواطف الجياشة والوجدان الرقيق والعطش إلى عشق أنثى كلمة أخيرة أمام كل تلك الصلابة والإرادة والتمسك بالفضيلة، لكنها وبكل تأكيد لم تكن الكلمة النهائية، وهذا ما سنعرفه فيما بعد وبرغم الثمن الكبير والباهظ الذي دفعه ذلك الشاب لقاء ذلك.

غادر الشاب المكان والمشاعر القوية تعتمل داخل صدره وهو يفكر في وعود ذلك الرجل بأن يعرفه على فتاة نبيلة الأسرة والمنشأ فريدة الجمال والأنوثة. ولم يطل انتظاره ففي ظهيرة اليوم التالي دق هاتفه الخاص وانساب إلى سمعه صوت أنثوي ساحر جعله يهتز كورقة شجرة يابسة عصفت بها الريح فذهبت بها إلى حيث لا تعلم منتهاها، بلع الشاب ريقه وجاهد بقوة ليحتفظ بتوازنه النفسي، وبدأت قصة حب ساخنة وحقيقية، انجرف إليها الشاب مع المحادثة الأولى. ومع توالي اللقاءات على الهاتف نمت داخل قلب الشاب ومشاعره شجرة حب وارفة سيطرت بها تلك الفتاة على وجدانه وأحاسيسه، وعاش ذلك الشاب النقي أجمل ساعات عمره على الهاتف رافضًا مجرد التفكير في أن تخرج معه الفتاة بل كان يكتفي برؤيتها من بعيد في أحد المحلات، ولم يحاول قط أن يحملها في سيارته أو يتصرف معها كما يتصرف كثير من الشباب مع الفتيات.

كانت الفتاة تمارس معه دور الحبيبة في تصنع متقن، وكانت تعطيه خداعاً وزيفاً محملين بأحلى وأجمل وأرق همسات الحب وآهاته وحرارته، عاش بها وعليها أسعد أيام عمره وحياته، ومنحته شعورًا هائلاً بالقوة والطموح، وبدهاء كبير بدأت بأسلوب الأفعى فحيحاً لا ينقطع من أجل المال والهدايا وتطور الأمر لما هو أبعد من ذلك. كانت أمها أيضاً تلك المرأة عديمة الأصل والضمير توجه ابنتها في علاقتها

مع ذلك الشاب ولم تخفِ ذلك بل دخلت كطرف أصيل بصراحة ووضوح وأسفرت عن أقبح وجه حين بدأت مع ابنتها أحقر استغلال لذلك الشاب.

وبدأت المطالب تتوالى ومع تلك المطالب الكثيرة بدأ الخداع يكشف عن وجهه، بكل وضوح وقبح. كان العشق قد تمكن من صديقنا الشاب لدرجة بات الأمر معه في غاية الخطورة؛ حيث تمكنت تلك الأفعى من التسلل إلى كل المساحات الخالية في مشاعره وأحاسيسه وتمكنت منها تمامًا. العاشق دائماً وأبداً لا يرى في معشوقته سوى كل ما هو جميل وساحر وأصيل، ومع العشق تتحول كل وجوه القبح وأشكاله إلى صور هائلة الجمال ساحرة التكوين ويظل المعشوق في عين العاشق رمزًا حيا من رموز الكمال الإنساني في كل الوجوه، يظل جمال المرأة المعشوقة في عين الرجل العاشق هو الجمال الذي يتحدى الجمال في كل نساء الأرض الأخريات حتى لو تجمع هذا الجمال كله في امرأة واحدة. العاشق يتحول دون إرادة إلى أسير يستعذب الأسر في معتقلات جمال معشوقته وتظل روحه هائمة معها أينما كانت ورحلت. العاشق ينتهي ويذوب تماماً ويضيع مع صورة معشوقته، العاشق يتمنى لو أن أيام العمر الباقية تُهدى ليهديها إلى من يعشقها.

كل أموال الدنيا وكنوزها تتحول إلى صناديق قمامة لو وضع العاشق موضع اختيار بين معشوقته وتلك الأموال والكنوز. العاشق يتمنى لو قبَّل بصمة قدمي معشوقته على التراب ويتخيل بأحاسيسه الأسيرة أن كل مكان على الأرض يشهد ظل حبيبته يتحول فيه التراب إلى زعفران... هكذا عاش الشاب تلك الأحاسيس، نسي أن هناك ليلاً وأن هناك شيئاً اسمه النوم، أصبح يومه كله نهاراً تغيب الشمس في نصفه الآخر.

وذات ليلة من تلك الليإلى المشهودة، وبعد غروب شمس ذلك النهار شهدت تلك اللحظات مطارق اليقظة وهي تدوي لتعلن بداية النهار لخداع طال ولقصة استغلال حقيرة للعواطف تضع أصحابها مع زبالات البشر وشرار الخَلق والخُلق في موضع واحد.

كانت السيارة الشبح تقطع الشارع التجاري الشهير في المدينة في طريقها إلى أحد المحلات الشهيرة التي ترتفع أسعار بضائعها ومركاتها العالمية بشكل كبير، وكان الشاب لنبله وكريم معدنه وجوهره يصحب معه صديق عمره الذي كان يجهل القصة وأحداثها ولم يكن يدري عنها شيئاً.

كان الصديق يلحظ على صديقه الشاب غيابه وانقطاعه بشكل غير عادي، لكنه أرجعه كالعادة إلى طبيعة ذلك الشاب في حياته وسلوكه، ودار الحوار بين الصديقين وفتح الشاب قلبه لصديقه الأمين وبدأت التفاصيل تكشف عن استغلال قبيح وخطير لذلك الشاب النبيل.

أدرك صديق الشاب أن هناك مؤامرة رخيصة على صديقه الشاب بطلها ذلك الرجل الشرقي القميء صاحب المحل، وتلك الفتاة وأمها لابتزاز الشاب من خلال مشاعره وعواطفه.

ودارت عاصفة من الصراع داخل نفس الصديق. كان الأمر بتفاصيله لا يحمل أدنى شك في أنها قصة خداع واستغلال مشاعر لا قصة حب أو عشق. وحسم الصديق أمره على مكاشفة الشاب بالحقائق مجردة كما استنتجها، وبالفعل فاتحه بكل هدوء بشكوكه بل بيقينه، وكان للشاب من صديقه موقف آخر.

أوقف الشاب السيارة على يمين الطريق وأطفأ محركها وثار على صديقه ثورة عنيفة كادت تصل إلى أن يطرده من السيارة، وتمسك الصديق بالهدوء والحكمة مصرا في نفس الوقت على موقفه واستنتاجه.

وعند منزل الصديق افترق كلاهما بعد أن سقط حجر ثقيل رماه الصديق بهدوء ليحرك به سكون هذه البحيرة الآسنة. أخذت الدوائر تتوالى في عقل الشاب وتتسع، ولم يكن ليلتها في حالته الطبيعية في أثناء حديثه إليها، إلى أن فوجئ بها وهي تحادثه أنها تطلب بأسلوبها المعهود نفقات وتذاكر السفر إلى لندن، لها ولكل أسرتها لقضاء الصيف هناك، وكان المبلغ خرافيا يصل إلى ثلاثمائة وخمسين ألف ريال. ولم يصدق نفسه... كانت الصدمة هائلة وبدأ عقله يسترجع الأحداث حدثًا تلو حدث منذ بداية معرفته بها وحبه لها، أنهى مكالمته معها بدعوى الإرهاق وعاش الساعات المتبقية من ليلته في صراع رهيب بين عقله وقلبه، العقل يميل به إلى ناحية اليقين من خداعها وزيفها واستغلالها، والقلب وما يحمله من عاطفة يقاوم في شراسة بالغة في جولات متوالية من الصراع تنتهي دائمًا بانتصار العاطفة وبالفعل كان الشاب عاشقًا لدرجة الوله والجنون، لكن ها هي الوقائع تسفر بوضوح لا يقبل الشك والجدل عن أقبح وجوه الاستغلال البشع لمشاعر الإنسان والاتجار فيها.

ارتفع صوت الأذان منادياً البشر للعودة إلى مظلة رحمة الله ومغفرته: الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله ... وحاول الشاب النهوض وهو مستلقٍ على ظهره واضعاً يديه مشبوكتين تحت رأسه وعيناه تبحلقان في سقف المكان، لكن هيهات فقد كان جسده خائرا منهوك القوي.

كان قبل أن يلتقي بصديقه ويعترف له على استعداد لأن يسهر العمر كله، ترفض عيونه أن تعرف للنوم سبيلاً مع شعور طاغ بالقوة والنشاط. كان يجتاحه شعور ملكي بأنه بالفعل يملك الدنيا بما عليها، وتناهى إلى سمعه صوت المؤذن مرة أخري وهو يختم الأذان لا إله إلا الله ، وفجأة انهمرت دموعه مدرارة تغسل آلامه وتخفف من وجيعته وعذابه.

نهض متثاقلاً ليتوضأ، وفي ضعف بشري ظاهر رفع يديه إلى السماء ضارعاً $ أن يمطره برحمته بعد أن ختم صلاته. ولأول مرة يشعر أنه بحاجة إلى قسط من الراحة، فمدد جسده على فراشه وراح في إغفاءة لم يطعمها منذ شهور ولم تطل لأكثر من ساعتين، وفي الصباح الباكر كان الصديق يحمل أوراقًا خاصة بتغيير أرقام الهواتف في منزل صديقه. كانت الشمس ترسل أشعتها القوية محملة بحرارة لاهبة، بينما كانت الأفاعي تتسلل آوية إلى جحورها استعدادًا لممارسة لدغاتها السامة في ضحية أخري.

[{ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ}. (الحديد:20)

صرخة

كانت شلالات الفضة تنسكب من البدر نوراً على صفحة المياه الهادئة وكانت نسمات عليلة ورقيقة تهب من حين لآخر ملطفة من بقايا حرارة الجو ورطوبته التي كانت آخر فلولها تغادر الأرض في تلك اللحظات الرائعة إلى السماء، وانساب صوت ارتطام الأمواج الهادئة بالشاطئ عذباً وشجيا لتكتمل بانوراما إلهية ساحرة في ذلك المكان المنعزل المطل على الخور المائي بالخليج، وهناك بعيدًا داخل المياه كانت تتلألأ أضواء مصابيح صغيرة، ربما كانت أضواء بناية في آخر اللسان اليابس الممتد داخل مياه الخليج في ذلك المكان، وبالتحديد على بعد أمتار قليلة من حافات المياه توقفت السيارة اللاند كروزر البيضاء براكبها الشاب وتهادي من نوافذها صوت الموسيقي الغربية الحالمة، وهو الأمر الذي نسجته من خلال هذه القصة التي تحوي من الواقع أضعاف ما تحوي من الخيال.

كان الشاب الجالس في سيارته يعيش حالة عشق أودت بكيانه وزلزلت عاصفتها حياته واستقراره دون سابق إنذار، وفي ظروف قدرية لم تكن له فيها يد أو إرادة حين دخل بقدمه وبمحض إرادته إحدى الهيئات الحكومية لينجز بعض أعماله والتي كان يقوم بإنجازها لأول مرة في ذلك المكان، وهناك التقاها وجها لوجه ومع ذلك اللقاء امتد خيط حريري معطر بين قلبيهما فتوقف الحديث وتحدثت المشاعر.

كانت الفتاة عربية خالصة في دمائها ونبيلة في عراقتها ودمثة في أخلاقها احتوت نصف جمال الدنيا ورقتها وعذوبتها، وكان الشاب كريم النفس والخلق أصيل المنبت والعائلة تربي كأفضل ما تكون التربية وضم صدره قلباً من ذهب لا يعرف للشر سبيلاً ولا للحقد والكراهية طعماً أو دليلاً. رحبت الفتاة بزائرها بكل أدب ودماثة ورد عليها الشاب شاكراً بعد أن ابتلع ريقه في صعوبة من يخشى أن يراه الآخرون، وبعد أن خفض بصره إلى الأرض حياءً وأدباً، إلا أنه اختلس بعض النظرات إليها من طرف خفي فكانت كل نظرة اختلسها وكأنها جمرة متوهجة اخترقت ضلوعه وأشعلت حريقها في قلبه.

لم يكن يدري في تلك اللحظات أنها هي الأخرى أحسست بمشاعر قوية هزتها تجاهه، ولم يكن يدري أيضًا أنها وبطريقة الأنثى وأسلوبها قد اكتشفت وبشكل مبدئي أن هذا هو الرجل الذي تنتظره، ولم تكن تعلم يقينا على أي شكل وصورة سيكون ذلك الرجل في حياتها، إلا أن يقينها لم يهزه الشك في أنه سوف يكون لهذا الشاب دورًا ما في نسج مستقبل حياتها أيا كان هذا المستقبل البعيد أم القريب أم الاثنين معاً.

ذهب الشاب إلى حال سبيله بعد أن أنهي مهمته في تلك الدائرة الحكومية وبعد أن ترك أوراقه وبها بياناته الشخصية والذي كان من بينها رقم هاتفه وودعته هي بمشاعر طيبة وابتسامة نبيلة. مرت أيام قلائل بحساب الزمن وثقيلة الوطأة بحسابات المشاعر والوجدان على الشاب الذي لا يدري أو يعرف كيف يعاود الكرة ويراها وهو الشاب الذي يرفض في بنيانه الروحي والقيمي أن يهبط مستواه إلى دائرة العبث والصبيانية.

إنها بالفعل تعجبه كامرأة وحركت مشاعره كإنسانة ولكنه لا يعرفها أو يدري شيئاً عن حياتها. لكن القدر كان يرتب له دورًا مع هذه الفتاة النقية الفاضلة.

تصارعت الأفكار داخل عقل الفتاة حين ساورها شعور داخلي قوي بأن هذا الشاب يملك في داخله خيراً أكثر مما يملك في مظهره الخارجي، وحارت الفتاة في أمرها فهي تعيش أزمة نفسية خانقة ومشكلة تهدد كيانها وسمعتها وظروفًا قاسية تتطلب وجود إنسان يشاركها آلامها وهمومها ويتقدم بشهامة الفرسان ليأخذ بيدها ويساعدها لكن كيف وبأي طريقة كانت تلك المشكلة الكبرى، حزمت الفتاة أمرها بعد أن أرهقها التفكير ونالت منها الحيرة، ودقت رقم هاتفه في مكتبه الخاص عصر أحد الأيام بحجة استيفاء بعض البيانات المطلوبة وبدأت معه حديثًا كانت المشاعر خلاله هي المحرك الحقيقي للحوار وفتحت له الفتاة قلبها وكانت جوارح الشاب ومشاعره كلها تصغي وتهتز مع كل كلمة وحرف في ذلك الحديث الشجي.

لكل إنسان نزوة مادام لكل إنسان مشاعر، وما دام الإنسان هو الإنسان بطبيعته التي تحمل الخطأ والصواب في تكوينها الإنساني. شاء القدر أن تتعرف تلك الفتاة على أحد الشباب الذين يترصدون الفرصة للإيقاع بالفتيات في نذالة وخسة معتقدين أن الإيقاع بفتاة بريئة وطاهرة يعد من أعمال الفروسية والمقدرة، وهم لا يعلمون أن الفتاة حين تستجيب للحديث مع أحدهم فإنها في حقيقة الأمر تبحث عن إنسان صالح يأويها كزوجة ويحترمها كإنسانة، وبكل الدهاء تسلل ذلك الشاب إلى قلب الفتاة ومشاعرها كثعبان أرقط وكانت هي تطمع أن يكون ذلك الإنسان شريك حياتها التي تحفظه في ماله ودمه وعرضه وتمنحه ذرية صالحة وحياة مضمخة بالسعادة والهناء. وحملت أسلاك الهاتف أحلى الكلمات وأعذب أنغام الحب ومعزوفاته، وكانت تمنحه مشاعرها نقية كمياه المطر وعذبة كقطرات الشهد، وكان النذل ماهرًا في الإيقاع بفريسته واللعب على أوتار مشاعرها، وطالت الأحاديث وتدفقت المشاعر عبر أسلاك الهاتف وهي لا تدري أنه يسجل لها كل كلمة تقولها على أشرطة التسجيل لغرض سيئ في نفسه وهو امتلاك جسدها دون زواج من خلال تهديدها بذلك الشريط. ويومًا بعد يوم بدأت الفتاة تلاحظ تملصه من وعوده وتغيره إلى أن طلب منها أن توافيه في منزل يمتلكه هو وبعض أصدقاء السوء لينال منها هناك.

وصدمت الفتاة صدمة هائلة وأجابته بالرفض حينما أسفر عن أقبح وجه وأسلوب لشيطان رجيم. فهمت الفتاة أخيرًا أنها كانت ضحية لإنسان تخلي عن القيم وتجرد من الأخلاق والضمير وباع دينه وإنسانيته برغبات وضيعة وأسلوب رخيص ونفس خسيسة. كان الشاب النبيل يتسمع مذهولاً إلى حديث الفتاة وصراحتها وثقتها وكانت كل كلمة منها تفتح باباً لها في قلبه ومشاعره.

لم يكن الشاب يملك من سبيل لمساعدة تلك الفتاة في ظل ظرف يتهددها بالفضيحة وفي مجتمع لا يقبل أن تحيد الفتاة عن جادة العرف والتقاليد مهما كان الهدف. لكنه بالفعل ودون أن يدري كان يملك أعظم قدرة لمساعدتها وهي المشاعر الصادقة والإخلاص والنبل، هذه القدرة التي تشعر الإنسان بقدرته وتقوي عزيمته وتشد من أزره حين يشعر بوجود إنسان آخر يشاركه همومه ويسديه النصيحة خالصة ومجردة

ونقية من نفس وقلب يحملان أصدق وأنبل المشاعر لإنسان يحبه ويتمناه. صرخت الفتاة صرختها في قلب إنسان حمل لها الأمان والدفء ولم تخضع الفتاة أو تنهار أمام تهديدات ذلك النذل الخسيس وحملت الأيام أنباء معركة انتصر فيها الخير على الشر والحق على الباطل حين تدخلت قدرة الله في لحظات غاب فيها الأمل. كان النذل يقود سيارته على أحد الطرق الرئيسية حين صدمت سيارته إحدى السيارات الضخمة التي كانت تسير في الاتجاه المعاكس لتسحقه وتمزج عظامه بحديد سيارته ليمثل أمام عدالة الله بعد أن عجزت عدالة الإنسان عن ملاحقته وعقابه.
هكذا دائماً يكون الشر ضعيفاً بقدر ضعف الإنسان وهكذا ينتهي.

[{وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}. ^ (النحل:118)
الطاعون
كانت الأرض في ذلك اليوم الربيعي منتشية حتى الثمالة برحيق السماء الرقراق الذي انهل عليها وانهمر في كرم الهي بالغ منذ بدأت نسمات الصباح الطاهرة النقية ترافق أوتار الضياء الأولى فجر ذلك اليوم ليطهرا معاً وجه الكون من رجس أنفاس العصاه ووحشة الديجور وحلكة ظلامه وظلمه . بزخات غنية من المطر تفجرت غمامتها الرمادية وهاجت شوقاً لعناق الأرض الظمأى فأشبعتها رواءاً وأطفأت بقطراتها النقية هجير شوق طال أمده ومداه .
ومع الأرض ارتوت قلوب البشر ونفوسهم الظمأى لرحمة الخالق سبحانه وتعالى من هجير الحياة وشهواتها العبثية الزائلة .
وبدت مدينتنا بعد الغروب والمطر كأنها حسناء غادرت لتوها مسبحاً يموج بالعطر أزال عن وجهها وجسدها وروحها وعثاء سفر أجهدها بين غيمة راحلة وأخرى ماطرة كما بدا الكورنيش بشكله الدائري ومصابيحه الفسفورية المتراصة وأضواء النيون الملونة على واجهات البنايات والمحلات وأضواء السيارات من بعيد كأنه يد تلك الحسناء رصعته تشكيلات رائعة من اللآليء والماسات تمازجت في حسن رائع مع كريم الزبرجد والياقوت وأعطى الخليج بعتمته وسواده مع الكورنيش بروعته وأضوائه منظراً بانورامياً ساحراً لتلك الحسناء وكأنه عباءتها سقطت على كتفيها فظهر نحرها وجيدها يطوقهما ذلك العقد الرائع .
ومع تلك الروعة التي ميزت طقس ذلك اليوم وتلك الليلة تشبعت النفوس بالارتياح والرغبة والاندفاع النهم المتعطش للحياة ومباهجها هكذا رأيت وجوه الناس والمارة وقد انعكس عليها سحر اللحظة وجمال الطقس وروعته كما انعكس على أسراب الطيور المهاجرة التي تتخذ من جزر الخليج البحرية وشواطئه محطة للراحة في رحلتها الطويلة صوب الشمال وهجرتها السرمدية بين الشمال والجنوب هاربة تارة من صقيع الشمال وتارة أخرى هاربة من لهيب حرارة الجنوب .
وعلى طول الكورنيش كانت السيارات الفخمة بموديلاتها الحديثة تمرق في سرعات متزنة يقودها سائقيها الأسيويين باتجاه ذلك الفندق الفخم المطل على مياه الخليج تاركه خلفها أنساماً عبقت بعطور أنثوية تذيب الصخر وتبعث بالرجفة في أوصال العتاة من الرجال . وهو أمرٌ أوحى بأن هناك احتفالاً يقام تحت سقفه وفي إحدى قاعاته الفسيحة يرجح أن يكون حفلاً للزواج .
وبالفعل رجحت التوقعات فقد كانت الليلة ليلة خميس وعادة ما تقام مناسبات الأعراس والزواج في بلادنا أمسيات الخميس والأحد في مواسم الزواج خاصة في الربيع حيث اعتدال الطقس وتواجد الناس وحيث الصيف هو موسم السفر للاصطياف هرباً من حرارة الصيف ولهيبه ورطوبته التي تدفع بالسأم إلى النفوس وتحد بشكل ملحوظ من حركة الناس ونشاطها .
أمام مدخل الفندق كانت السيارات تتوالي محملة بالضيوف ليغادرنها باتجاه قاعة الحفل التي تصدرها المسرح الفخم المزدان ببقات الزهور الرائعة ومع توالي وصول الضيفات أصبح الهواء داخل القاعة معبقاً بسحري العطر والجمال معاً وبشكل بدت معه كل تعبيرات الوصف وخصوبة الخيال عاجزة ومشلولة أمام جمال الصبايا ودلالهن الأخاذ . بعد أن سقطت العباءات وتحررت منها أجساد الصبايا والنساء امتلأت القاعة عن آخرها وتزينت بلوحات طبيعية ساحرة من ذلك الجمال الخليجي الرائع والقاتل معاً ذلك السحر الأنثوي الأخاذ الذي أودعه الخالق سبحانه وتعالى نسائنا وصبايانا وتحولت القاعة إلى ميدان عرض فريد لفخامة الملابس وموديلاتها الرائعة واستعراض الحسن ومواطن الجمال والأنوثة وكانت المجوهرات بلآلئها وألماساتها كأنها تستمد الجمال والوميض من تلك النحور والاجياد التي تفيض بالسحر والعطر والجمال .
كان الأمر في جملته خيالاً بل يفوق الخيال رغم حقيقته وكانت الصورة العامة في حقيقتها أكبر من أن يصفها عقل وقلب يذوبان ضعفاً أمام جمال المرأة الخليجية ودلالها وأنوثتها .
ضجت القاعة بالحركة والضحكات وبدأت الفرقة النسائية الفنية التي تحيي الحفل كما هي العادة دائماً في دق الدفوف والغناء وتلقي النقوط وقامت الصبايا يرقصن متمايلات في حركات رشيقة وأنثوية أخاذة وهن يلقين بشعورهن الفاحمة المسترسلة يميناً ويساراً واضعات أيديهن على صدورهن . وتعانقت الصديقات اللائي لم يلتقين منذ فترة في شوق ودارت بينهن الهمسات والضحكات واسترجاع الذكريات ، وتنقلت النساء والصبايا مستعرضات حسنهن وزينتهن في خفة ودلال كالظباء .
ودارت الحوارات والأحاديث بين الصديقات حول شتى الأمور وعادة في هذه المناسبات التي تمتد حتى الثانية عشرة ليلاً بل قد تتجاوز هذا الوقت إلى الواحدة آو الثانية صباحاً ما تتجدد الصداقات القديمة وتولد صداقات جديدة بين النساء ويتم التعارف بينهن ويتبادلن أرقام الهواتف وأجهز النداء (البليب) ليصير الاتصال فيما بعد . هكذا كان الحفل وتلك الأمور عادة ما تحدث خلاله بين المدعوات وهناك في أحد الأركان الخلفية للقاعة التي ضمت الحفل كانت تجلس امرأتان متوسطتي العمر تتهامسان بشكل يوحي بجدية الحديث ثم تستديران باتجاه إحدى

المجموعات النسائية التي ضمت حسناوات يفحن برحيق الجمال خاصة تلك الوردة اليانعة التي تبعث الرجفة في أوصال النساء قبل الرجال لفرط جمالها وكأنها امتلكت نصف جمال الدنيا دفئاً وأنوثة وشباباً يافعاً . كانت وكأنها حورية غادرت الفردوس لتوها وللحقيقة فقد كان جمالها وأنوثتها يصيبان من تقع عليها عيناها من النساء بالدوار كانت بمقاييس الجمال والأنوثة المتعارف عليها شيئا يفوق الوصف بل يتعداه إلى دائرة الصمت حيث تعجز المشاعر تماماً وإلى درجة الشلل والخجل معاً من وصف هذه الأنثى المتفجرة بالجمال والانوثة المتدفقة كشلالات من خمر تكفي قطرة منه لتذهب بوقار الكبار وتودي بعقول الرجال وكانت بنظرة واحدة إلى شفتيها البضتين وجيدها المرمري الخرافي التكوين ونحرها الرائع المشع بالسحر والدفيء معاً كفيلة بإثارة وحوش الرغبة وإشعال جحيمها في النفوس المتعطشة إلى الارتواء من ينابيع الجمال والأنوثة وكانت ملابسها بموديلاتها الفاخرة تكشف جمالها وأنوثتها بشكل صارخ . ومعها كانت شقيقتها الأصغر سناً كما بدا ذلك وكانت أيضاً بروعة حسنها وجمالها وفتنة قوامها دافقة الأنوثة كشقيقتها الكبرى .

باختصار كانت الشقيقتان محط أنظار الحضور من النساء اللائي شغفن باسترق النظرات إليهن إعجاباً تارة وغيرة وحسداً تارة أخرى.

كان الحوار مازال موصولاً بين المرأتين الجالستين في إحدى الزوايا وكان الواضح من خلال الحوار أنهما وصلتنا إلى نهايته وبالفعل غادرتا مكانهما معاً إلى حيث مجموعة الحسناوات وهنا في مجتمعاتنا الصغيرة تكاد معظم النساء أن يعرفن بعضهن بعضاً من خلال تأثير التطورات الاجتماعية التي طرأت على مجتمع الخليج حيث افرز التغير الكمي والطفرة التي حدثت والتعليم تغيرات نوعية هائلة وتطلعات جديدة لم تكن في الحسبان وهذا أمر طبيعي ضمن حركة التطور الإنساني إضافة إلى نمط الحياة المرفهة والمريحة التي منحت الإنسان هنا خاصة المرأة وقتاً كافياً للتفكير في مليء الفراغ وإشباع الرغبات .

غير أن اخطر ما في الأمر كان التطلعات المادية والتنافس في الاقتناء والامتلاك بالنسبة للنساء بعد أن أصبحت الثروة مقياساً هاماً للوزن الاجتماعي والمكان الشخصي فظهرت فئة من النساء الوضيعات الساقطات اللائي لا يتورعن دون ضمير أو وازع من دين وأخلاق عن التغرير بالنساء والصبايا العفيفات الشريفات عبر أساليب شيطانية رهيبة تارة بالأغراء بالأموال والمجوهرات وتارة بأساليب يأنف الشيطان منها حيث يتخذن من هذا العمل وسيلة للكسب وجمع الأموال وتكون النهاية سقوطاً مدوياً داخل بئر لا قرار لها ودائرة شيطانية من الخطيئة والعار تنتقل رياحها العفنة إلى إبعاد أخرى لتمس العائلة بأجمعها وتلحق العار بمن لا ذنب لهم .. من اجل ماذا نزوة .. رغبة .. مال وهدايا .. دائرة عبثية المضمون والجوهر وتفيق المرأة او الفتاة بعدها على واقعها المر فإن نجت من الفضيحة فلن تنجوا أبدا من عقاب الله وعذاب الضمير اقتربت المرأتان في هدوء وهما تبتسمان إلى مجموعة الحسناوات وألقتا بالتحية للفتيات وكأنهما على معرفة سابقة . وبالفعل كان الأمر كذلك فقد كانت إحداهما تعرف الفتاتين أما الأخرى فقد كانت ضيفة من بلد مجاور أتت لهدف تعرفه الأخرى تماماً وبطريقة ذكية بعد التحية المغلفة بالعتاب الممزوج بالنفاق تم التعارف بين الضيفة ومجموعة الصبايا الحسناوات وما هي الا دقائق قليلة حتى ذاب الجليد الذي يغلف بدايات التعارف وكانت الضيفة ومضيفتها خبيرتان في إذابة وإزالة جبال الجليد وانتهت السهرة بعد ان حفلت بلقاءات ومقابلات وضحكات ومائدة حفلت بأطايب الطعام ولم تنسى الضيفة التي تحمل في وجدانها روحاً مجللة بالشر وقلباً ملوثاً بالرجس والسقوط ان تسهب وبطريقة معينة في وصف جمال الفتاتين وتضمين ذلك الوصف عبارات وكلمات معينة مثل وين انتو والله انتو موبعارفين ان عندكم كنوز مسكره الدنيا حلوة وايد احلي مما تتصورونها سفر وفلوس ومجوهرات رحلات ، سهرات متع ما لها حدود ، ولم تنسى أيضا ان تشدد على أنها سوف تتصل بهما في الغد وقبل سفرها إلى بلادها . اقتربت نهاية الحفل وبدأ انصراف المدعوات وأخذت السيارات الفارهة تتوالي عائدة كل إلى وجهتها صوب مداخل أحياء المدينة ولم تكد الساعة تدق الواحدة والنصف صباحا حتى لم يتبقى في القاعة غير السكون والهواء المعطر وبعض الفوضى .

أشرقت شمس اليوم التالي قوية واثقة وحانية وزاد من حنانها النسمات الربيعية الباردة التي أخذت تداعب وجه المدينة لتطرد عنها الخمول ولكن لا فائدة فاليوم هو الجمعة يوم العطلة والراحة والكل يستمتع بالنوم صباح الجمعة حتى وان بدوا مستيقظين إلا أنهم يواصلون استرخائهم في أسرة النوم حتى العاشرة أو الحادية عشرة وبعدها يتأهبون لصلاة الجمعة وتناول طعام الغذاء ومن ثم الاستعداد لتنفيذ برنامج عصر ومساء الجمعة خاصة في حدائق الكورنيش الرائعة والتي تغص بالأسر وأطفالها يلعبون ويصرخون . حقاً لحظات رائعة يقضيها الأطفال مع أسرهم في الحدائق وعلى حافات الخليج والتوجه إلى الأسواق للتنفيس والترويح .

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة والنصف بقليل حين صرخ البليب تحت وسادة الحسناء التي كانت ما تزال مستلقية على فراشها ولها العذر في ذلك حيث لم تنم تلك الليلة إلا قبل السادسة بقليل من صباح الجمعة وحيث أمضت الساعات المتبقية من تلك الليلة في أحاديث مع شقيقتها وبعض صديقاتها على الهاتف حول الحفل والحضور خاصة الصديقات القديمات اللاتي قابلتهن وسعدت برؤيتهن على هامش ذلك الحفل إلا أنها كانت منشغلة البال في التفكير بحديث السيدة التي تعرفت عليها في الحفل والتي استطاعت ان تلفت انتباهها وتستحوذ على جانب كبير من تفكيرها حول مضمون حديثها ، مدت يدها وهي مغمضة العينين وسحبت البليب من تحت وسادتها وفتحت عينيها متثاقلة لترى رقم هاتف غريب لم تحتويه مفكرتها من قبل فخزنته على ذاكرة الجهاز ونهضت من فراشها وتناولت الهاتف وكانت تلك المرأة الضيفة التي التقتها مع مرافقتها مساء الخميس في حفل الزواج على الجانب الآخر ، طلبت الفتاة من السيدة التي تحادثت ان تمهلها لنصف ساعة لتسبح وتنهي حمامها الصباحي المتأخر وبالفعل عاودت السيدة اتصالها وبدأ في تلك اللحظة حديث من نوع آخر يحمل من الأحلام والخيال ما يتجاوز قدرة الفتاة على الصمود والتجاهل وبدا ان هناك عالم آخر يتناسب تماماً مع أحلام تلك الفتاة وتطلعاتها وأحلامها في الاستمتاع بالحياة المخملية المرفهة والانطلاق إلى آفاق أخرى لم يطرقه العقل قبل ذلك . لم تعلم الفتاة أنها تشتري بضاعة رخيصة زائلة لا تستمر لأكثر من وقتها .

كانت القضية باختصار سهرة بسيطة تتبعها سهرات تعطي فيها الفتاة وتمنح شرفها وكرامتها ودينها وسمعة عائلتها إضافة إلى مستقبلها

الشخصي مقابل تلك الإغراءات نعم لم تدرك الفتاة نتيجة الانحراف الى تلك الهاوية حين أغمضت عينيها وتخيلت نفسها تمتلك عشرات الآلاف التي تمكنها من امتلاك أجمل المجوهرات الحقيقية من الذهب المطعم بالألماس والزبرجد والياقوت ومن سيدري فكثيرات من المنحرفات يفعلن ذلك حيث ستؤدي دورها مثلهن تماماً في سهرات خاصة بعدها سوف تغادر إلى منزلها وكل شيء مرتب وسهل فسوف يحملها السائق الآسيوي إلى احد الأسواق كما يحدث عادة ويتوقف لينتظرها كالعادة وهناك على المدخل الآخر تنتظرها سيارة معينة تركب معه إلى حيث المكان الآمن ليقضي منها وطره ثم يلقي في وجهها بالمبلغ الذي اتفقت عليه معه وسيطة الإثم وملعونة الروح وشيطانه الإفك .
سرطان يهدد رئة القيم في مجتمعاتنا وهو ما يحدث بالفعل لم يكن الأمر كذلك فقط فقد كان جمالها وفتنتها ومستواها يؤهلها لطبقة معينة ومستوى خاص يستطيع ان يعطي بسخاء وكرم بالغين ولا مانع ان يسهل لها أمور السفر لغرض الالتقاء هناك في أوروبا حيث فوضى الحرية وغيبة الدين والانفلات من العادات والتقاليد .
لم تعطي الفتاة وعداً ولم تمنح تلك السيدة عهداً بل سألتها ان تمنحها الوقت لتفكر فأعطتها السيدة مهلة محدودة ووعوداً بلا حدود وتركتها .
عاشت الفتاة أيامها في تفكير وصراع حسمه الشيطان في نهاية الأمر لصالحه ولم تلبث الفتاة ان حزمت أمرها على الاتصال بتلك السيدة لمنحها موافقتها ولم تكن فتاتنا الحسناء سوى امرأة متزوجة ولم تكن شقيقتها الصغرى سوى صديقتها وابنه عمها البالغة من العمر سبعة عشر عاماً ، ولم تكن تلك المرأة الحسناء قد تجاوزت الثالثة والثلاثين من عمرها ولا غرو في ذلك ففي مجتمعاتنا عادة كانوا يحبذون زواج البنات في سن البلوغ وقد ارتبطت تلك المرأة بزوجها الذي توفي منذ سنوات وهي لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها فرزقت بطفلتها الأولى أنثى ثم بطفلين آخرين من الذكور، ورغم ذلك لم يستطيع الزمن ولا الأيام ان تنال من جمالها بل كانت الأيام تمنحها وتزيدها جمالا وفتنة.
وحانت اللحظة القاتلة التي يتوقف فيها الزمن ليجعلها فاصلا بين النجاة والسقوط بين الوفاء والخيانة وبين الكرامة والمهانة حيث اتصلت بها السيدة الأخرى تبلغها بموعدها الأول مع إحدى الشخصيات ذوات المال والمكانة وأعطتها رقم هاتفه لتتصل به .
مدت يدها وهي ترتجف إلى الهاتف ودقت رقمه وجاءها صوته على الهاتف مجيباً ومرحباً وفي كلمات معسولة وقصيرة وصف لها كيفية اللقاء .
وأمام إحدى صالونات التجميل توقفت سيارتها ودلفت من باب الصالون بعد ان صرفت السائق وبعد قليل أتت الشبح بقائدها لينطلق بها في وحل السقوط إلى حيث مزرعته الخاصة وهناك نزفت المرأة أغلى قطرات الشرف على مذبح الوهم ومقتل الفضيلة .
هتك الرجل أستار جسدها وبعثر أنوثتها ملقياً بفضلاته داخلها ، وعادت المرأة ذليلة كسيرة القلب مجروحة الخاطر والضمير ، عادت خاوية النفس والقلب مشوهة الجمال والأنوثة إلا من عدة آلاف سرعان ما تضيع وتتطاير بين محلات أزياء وعطور وصالونات تجميل .
وبدأ مسلسل السقوط والغرق في مستنقع الخيانة والإثم ومن العجيب والمقزز معاً أنها حين تقرر موعد زيارتها الآثمة تمتنع عن زوجها حتى ينالها أولاً ذلك الصديق الذي لن يمضي وقت طويل حتى يسجلها بفخر ضمن قائمة الخليلات السابقات ووقتها لن يتبقى لها سوى انين الضمير وقسوة الندم .
وهكـــذا كـــان السقوط

[{إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ }^
(النور:19)

درب الخطيئة
يظل الإنسان ضعيفاً أمام الخطايا كما يظل هو الوحيد الذي يدفع الثمن ويتحمل الخسارة بكل فداحتها وتنسحب أيضا فاتورة السداد وفداحة الخسارة على الآخرين من حوله حين تحل الكارثة ويحين السداد .
انطلق الشاب اليافع ذو الخمسة والعشرين ربيعاً يرتب حقيبته في همة ونشاط وانتهي سريعاً من ذلك الا انه وقف حائراً يتذكر ان كان قد فاته ان يضع عطره ومعجون أسنانه وأدوات حلاقته داخل الحقيبة وامتدت يده مرة أخرى تعبث في أركان الحقيبة إلى ان اطمئن انه لم ينسى شيئاً وكان عليه ان يغلق حقيبته ويمدد جسده على الفراش ليستريح حيث قاربت الساعة على الثانية عشرة ليلاً .
دق جرس الهاتف وكان صديقه ورفيق سفره على الجانب الآخر تحدثا قليلاً حول رحلتهم في الغد إلى تلك المدينة الآسيوية الرائعة وحياتها الصاخبة المتبرجة وإمكاناتها الهائلة في المتعة والإطلاق وتمنى كل منهم للآخر ليلة هانئة على أمل التلاقي غداً في صالة السفر بمطار مدينتهم الهادئة الآمنة ، نام الشاب ليلته نوماً قطعته نوبات من القلق الطبيعي الذي يسبق السفر عادة إلى تلك البلاد البعيدة والمجتمعات الغريبة في عاداتها وتقاليدها وكانت آخر نوبة قلق قد هاجمته حين أحس بحركة والدته داخل المنزل وهي تستعد لصلاة الفجر وتناهى إليه صوتها وهي تتضرع إلى الله بالمغفرة والدعاء .
استغرق الشاب في نومه مرة أخرى إلى ان أيقظته والدته وكانت الثامنة والنصف حين دق الهاتف وجاء صوت الصديق ورفيق السفر ضاحكاً وقائلاً نم واشبع نوماً فأمامنا سهراً طويلاً ينتظرك ، اتفقا على ساحة الرحيل قبل إقلاع الطائرة .

انتهى الشاب من حمامه وارتدى ملابسه ونظر في ساعته ثم أمر السائق الخاص بالمنزل بالاستعداد لتوصيله إلى المطار وهناك التقى صديقه ورفيق سفره تعانق الصديقان وانهيا إجراءات السفر بسرعة وان هي ألا دقائق حتى استقرا على مقعديهما بالطائرة المتجهة إلى بانكوك .
لم تكن تلك هي المرة الأولى للصديقين لزيارة بانكوك بل ربما كانت المرة الخامسة على مدار الأعوام الثلاثة الأخيرة تنقل الصديقان فيها معاً خلال رحلة الطائرة مستحضرين ذكرياتهما حول السفرات السابقة ومدى الاندهاش الذي أصابهما خلال المرة الأولى لزيارتهما لتلك المدينة المدهشة بأسواقها وزحامها وفنادقها الزاخر بشتى أنواع المتعة وحيواناتها وزواحفها وطرز مبانيها المعمارية البوذية الشكل والتصميم وللحقيقة كان هناك شيء وجانب هام من جوانب الاهتمام بزيارة تلك المدينة استحوذ على فكر ذلك الشاب منذ زيارته الأولى لها حين استطاعت تلك الفتاة اللعوب ان تفجر براكين الرغبة الجنسية العارمة لديه وسيطرت الفتاة بخبرتها وأنوثتها ونعومتها على عقل ذلك الشاب تماماً وأصبح هاجسه الأول والوحيد هو تلك الفتاة البوذية الناعمة ذات الشعر الفاحم الذي يغطي ردفيها.
لم يكن ذلك الشاب يدري حين تعرف على تلك الفتاة منذ سنوات انها تعطي الكثيرين غيره مقابل نفحات مالية تعيش عليها ولم يكن يدري ان وداعتها وطريقتها المثالية في التعامل مع الرجال هي نتيجة تراكمات الثقافة البوذية في مجتمعها وبلادها وقد كانت الفتاة بالفعل ناعمة نعومة الحرير وأنثى تستطيع بأنوثتها ومفاتنها ان تبعث جحيم الرغبة إلى أجساد ونفوس الرجال الزاهدين الذين فقدوا تلك الرغبة. كانت تصيب من يراها بالرعشة التي تسري في أوصال الجسد لتحطم مناعته ومقاومته وتخيل الشاب بأوهامه ان الفتاة أحبته وعشقت صورته وتولد لديه إحساس قوي بالرغبة في امتلاكها لكن هناك حواجز هائلة تمنعه من تحقيق حلمه وتنفيذ رغبته. كانت التقاليد العريقة والعادات التي توارثها المجتمع ذو القوانين الصارمة والتي تفرض على أبناء العائلات العريقة والأسر المحافظة ألا يتزوج سوى من بنات عمومته أو خؤولته وأقاربه عموماً.
اكتفى الشاب بتلك الزيارات الدورية المتقطعة لمدينة بانكوك وتكفل بإعاشة الفتاة فكان يرسل لها مبالغ مالية من بلاده معتقداً أنها له هو فقط وليست لأحد غيره هكذا تعهدت له وهكذا اقتنع الشاب.
مرت تلك الخواطر على شريط ذاكرة الشاب بسرعة إلى ان أفاق على صوت صديقه يداعبه قائلاً وهو ينظر من نافذة الطائرة نحن الآن فوق بلاد الهند ومدنها وبالفعل كانت الخارطة الضوئية توضح ان مسار الطائرة يمر على السواحل الجنوبية للهند وتشير الى ذلك بوضوح.

تحركت مضيفات الطائرة بنشاط وخفة وهن يقمن على خدمة ركاب الطائرة وقت تقديم الطعام والابتسامات تغطي وجوههن وبعد انتهاء الركاب من طعامهم هدأت الحركة داخل الطائرة وغفا معظم الركاب فقد كانت الرحلة طويلة وباقي من الزمن خمس ساعات للوصول إلى مطار بانكوك.
كان الركاب الجالسين بجوار نوافذ الطائرة يطالعون المدينة الآسيوية العريقة وراد الصمت كما هي العادة أثناء هبوط الطائرة .. إحساس غريب يتولد لدى المسافرين خلال مرحلة الإقلاع والهبوط ربما كان الإحساس بالخوف هو الدافع الأكبر في الحالتين معاً وأخيرا شعر المسافرون بتلك الهزة الخفيفة التي تصاحب ملامسة عجلات الطائرة الأرض المدرج وأخيرا توقفت الطائرة تماما وبدأ ركابها بالنزول وكلُ يحمل أحاسيسه ومشاعره في قلبه وروحه.
انهى الصديقان إجراءات الجوازات خلال فترة قصـيرة واجتـازا بوابة المطار وحملتهما سيارة الأجرة إلى ذلك الفندق الضخم الواقع وسط مدينة بانجكوك كان اللقاء حاراً وعاصفاً حين فتح باب غرفته وألقت الفتاة بنفسها بين ذراعيه ليتلقاها في صدره ويده اليمنى تعبث في شعرها المسترسل الناعم ثم يسحب رأسها قليلاً إلى الخلف ويطبق بشفتيه على شفتيها في قبلة عميقة وعنيفة يرتوي خلالها من عسل محرم وملوث معاً.
شهر كامل كالعادة عاش فيه الفتي غارقاً في رغباته ونزواته دون وعي وكلما اقترب موعد النهاية أحس الفتي بغصة في صدره وحاول جاهداً لكي يطرد هذا الإحساس باقتراب سفره عائداً إلى بلاده. ولم يكن هناك بد من العودة فلكل شيء نهاية كما ان لكل شيء بداية تلك هي سنة الله في الكون لا شيء يبقى على حالته.

امضى الشاب أيامه ولياليه مستمتعاً حتى الثمالة بحياته ضارباً بالقيم الدينية والأخلاقية عرض الحائط بل ربما كان كارها ان يتذكر شيء اسمه قيم او دين وتلك حقيقة توجد في نفس كل من يسلم نفسه للشيطان ويستسلم لنزواته دون ان يحكم عقله ويردعه ضميره فالمهم في تلك اللحظات هو إشباع وحوش الرغبة التي لا تشبع ولا ترحم والغرق حتى النهاية في مستنقع متعة آنية زائلة وان طال وقتها ول طعمها.
قضى الشاب ليلته الأخيرة يجتاحه طوفان من التعاسة وهو يستعد للعودة إلى بلاده تاركاً معشوقته الرائعة ومودعاً لياليه الحمراء بكل ذكرياتها ومتعتها ولم تتركه الفتاة إلا وهو في مطار بانجكوك وودعته بقبلة طويلة ودافئة جعلته يشعر بطوفان من المرارة والحزن لفراقها.
رجع الشاب إلى بلده وأسرته وعاش أيامه يفكر في موعد الزيارة المقبل مستعجلاً مرور الأيام ليعود إلى حيث يجد متعته ومرت شهور أحس الشاب خلالها بوهن وضعف وبدأت البثور تنتشر على وجهه وصدره وأصابه التهاب رئوي حاد جعله يراجع الطبيب.
فحصه الطبيب ثم أمر بإجراء تحاليل خاصة لدمائه وبحالة من الذعر سأله الشاب ماذا هناك أيها الطبيب ورد عليه الطبيب مطمئناً وأعطاه بعض العقاقير وسأله ان يعود في الغد.
وفي الغد كان الشاب على موعد مع النهاية المؤلمة بإبعادها وذلها وآلامها .. الايدز كانت صدمة هائلة لذلك الشاب وأهله جعلت دموع أمه وأخواته تنسكب دماً حزناً على ذلك الشاب الذي ضاع عمره وضاعت حياته حين ضاع وعيه وضاع ضميره.

عاش الشاب بقية أيامه في غرفة العزل داخل المستشفى بين الأمل والرجاء وأصبح الشاب القوي البنيان هيكلاً عظيماً يكسوه الجلد الملئ بالبثور إلى ان دخلت عليه الممرضة ذات صباح فوجدته قد اسلم الروح وسجلت تقارير المستشفى حالة وفاة بالايدز لمريض شاب ضاع عمره وانتهت حياته بسبب نزوة حينما غرق في مستنقع الرذيلة.
[{فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ} ^ (سورة المعارج : 42)

تــوبــة
يظل الحوار متصلاً داخل النفس بين رغباتها وميلها للشهوات والشرور بمسمياتها وبين الخير والفضيلة والالتزام بما رسخ في النفس من ثمار العقيدة ونفحاتها المعطرة بأريج الإيمان. ويتأرجح الميزان ليميل تارة ناحية الاستسلام لرغبات النفس والتمتع الآني الزائل بالشهوات وممارسة الشرور الإنسانية في غفلة من الضمير وفي لحظة يترقبها الشيطان ترقباً لا يمل منه ولا ييأس ليقتنص فرصته خلال تلك الغفوة من الضمير ويمارس هوايته في تحطيم حياة البشر ونفوسهم ودفعهم إلى مهاوي الردي والسقوط.
ثم يعود الميزان ليميل مرة أخرى احية الفضيلة طارقًا باب النجاة حين يستيقظ الضمير ويصحو ويعود من غيبته ليطارد الشيطان وشروره، لكن أي ثمن يدفع الإنسان لقاء هفوة من شر وغفوة من ضمير، وأي خسارة تتحملها روح الإنسان وعمره ومستقبله، ثم ما هي النتيجة..؟ الأمر ليس عبثًا، والثمن باهظ، والخسارة فادحة، وهذا الدين عادة ما يسدد فاتورته الإنسان نفسه من حياته ومستقبله.
كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية والنصف صباحاً حين خرج الرجل البالغ من عمره أربعين عاماً إلى شرفة منزله تناوشه الشكوك والظنون وتدمر أعصابه بشكل جعله يقترب من الجنون، عاد إلى الحجرة وسحب أحد المقاعد الخفيفة بيده إلى الشرفة ليستريح عليها وسيجارته لا تفارق أنامله.
بدأت ملامح تلك المأساة تتبلور بعد سنوات قليلة من الزواج الذي ربط بينه وبين فتاة رائعة الحسن وفاتنة الجمال وكان عمره يبلغ الثامنة والعشرين، بينما كانت زوجته في ذلك الوقت في الثانية والعشرين من عمرها، شابة يافعة تمتلئ بالأنوثة والحيوية والشباب.
استقر الزوجان في بداية زواجهما بمنزل العائلة مع شقيقته وأمه؛ حيث لم يكن وضعه المادي وقتها يسمح له بالعيش في منزل مستقل، وكالعادة دبت الخلافات بين الزوجة الشابة من ناحية والحماة وابنتها من ناحية أخري، وكبرت الخلافات إلى حد الاعتداء على الزوجة وتكررت إهانتها من جانب زوجها لإرضاء أمه، وتوالت الأيام تمضي إلى أن وصلت الخلافات إلى حد باتت معه الحياة بمنزل العائلة من جانب الزوجة مستحيلة، فكان الرحيل والانتقال إلى منزل آخر وفيه بدأت حياة جديدة.
ومع بداية تلك الحياة بدأت الأحداث تتوالى بصورتها المأساوية إلى أن سحب الرجل مقعده في هذا الوقت المتأخر ليجلس في شرفة منزله وبقايا السجائر تتكاثر أعدادها داخل المنفضة.
تربي الزوج طفلاً في كنف زوج أمه بعد أن تطلقت أمه من أبيه وهو لم يَحْبُ بعد في تلك المدينة البعيدة، ولم تراع الأم نفسية طفلها الصغير حين بدأت توغر صدره على أبيه وعائلته منذ بدأ يعي ويفهم، وبالطبع لم يكن أبداً ولن يكون زوج الأم كالأب الحقيقي في حنانه ورعايته، خاصة حين رزق هذا الزوج منها بأبناء آخرين. وكبر الصبي بين إخوة غير أشقاء وبطبيعة الحال شعر الصبي وأحس بتميز إخوته غير الأشقاء عنه، وهذا أمر طبيعي وواقع حال لا مفر منه؛ فتشوهت نفسيته وأصابته حالة من الشعور بالدونية حين حطمت الأم صورة أبيه في نفسه وعقله ووضعت في شخصه كل النقائص والعيوب، وكانت تفعل ذلك على شكل تلقين يومي لذلك الطفل لخوفها أن يتركها ويذهب إلى والده حين يبلغ السن التي تؤهله لذلك، إلى جانب محاولتها حيازة حبه وولائه لها في جهل وظلم بيّن دون أن تحسب لنفسية طفلها البريء الغض أي حساب سوي أنانيتها المفرطة وعمى بصيرتها ثم جاءت التربية في كنف رجل آخر وضمن أسرة كان الصبي خلالها ينتابه شعور قوى بتميز إخوته عنه من خلال معاملة والدهم التي كانت تظهر وتوضح هذا التمييز، وذلك أمر طبيعي وفطري كما أسلفنا.
ومن البديهيات أن التشوهات النفسية التي تصيب أطفالنا تظل كامنة أحيانًا إلى أن تواتيها الظروف المثالية للظهور وينعكس ذلك بشكل خطير على شخصية صاحبها، الأمر الذي يمكن معه خلال ظهور تلك الإفرازات النفسية السيئة على صاحبها أن يرتكب أفظع الجرائم وفي أبسط الأحوال تنعكس في صورة سلوكيات شاذة ومنحرفة تؤذي صاحبها وترتد على المجتمع بالسلب والضرر، هكذا نشأ ذلك الصبي في ذلك المناخ النفسي وهكذا تشوهت نفسيته.
أنهى الشاب دراسته والتحق بأحد الوظائف العامة، وكان عليه كالعادة أن يجاهد لبناء كيانه الاجتماعي من خلال الزواج والاقتران بفتاة تشاركه مسيرته ودرب حياته، وبالفعل ما أن بلغ الثامنة والعشرين حتي كان قد حقق القدرة المادية والاجتماعية على الزواج من تلك الفتاة الرائعة ذات الاثنين وعشرين ربيعاً إلى أن انفصل عن أسرته بمنزل مستقل مع زوجته التي كانت قد عانت الكثير من أمه وشقيقته مما أجبرهما على الرحيل من منزل العائلة.
كان على الشاب أن يواجه الحياة الجديدة ومسئولياتها الصعبة بممارسة بعض الأعمال التجارية التي تدر عليه دخلا يساعده على مجابهة ظروف حياته، وفي غمرة ذلك الانشغال كانت الزوجة في شهور حملها الأخيرة وتواكب ذلك مع بداية تغيره تجاه زوجته بصورة عنيفة وغير مبررة ومتكررة في نفس الوقت حتى وصل الأمر إلى أن الزوجة أصبحت تكره موعد وصوله إلى المنزل والذي أصبح موعدًا يوميا لسبها والاعتداء عليها بطريقة وحشية ثم تطور الأمر إلى سهر دائم بصحبة أقران السوء مع أقداح الخمر في الوقت الذي تجاوزت أحلام الزوجة كل الحدود بحياة كريمة مستقرة مع زوج تحبه وتأمل أن يرعاها بحنانه ودفء رجولته وعاطفته. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل

فوجئت الزوجة إلى جانب المعاملة المهينة التي تلقاها من زوجها أنه أصبح حتى يبخل عليها بالمصروف بشكل عجزت معه أن تجدد ملابسها أو حتي تشتري أدوات زينتها.

تحطمت أحلام الزوجة على صخرة الواقع المرير الذي تعيشه مع ذلك الزوج وهي شابة يفوح عطر نضارتها وجمالها وأحوج ما تكون إلى الشعور بمن يحبها ويشبع أنوثتها وعاطفتها. كانت ترى زوجها وهو يدخل إلى المنزل تفوح من فمه رائحة الخمر ليعتدي عليها مهينا لكرامتها وكبريائها وجارحًا مشاعرها وأنوثتها ومحطمًا لنفسيتها فتحول حبها له إلى بغض وكراهية وأحست أنها حوصرت في زواية لا تستطيع منها فكاكًا حيث فكرت أن تطلب الطلاق فجوبهت من أهلها بثورة عنيفة وأجبرت على العودة إلى منزل زوجها، عاشت الزوجة مع وليدها أسوأ أيام حياتها وهي تحاول إصلاح زوجها دون جدوى وتفكر بشتى الطرق في تعديل مسار حياتها معه إلا أن كل محاولاتها ذهبت أدراج الرياح، ومع تلاشي بقايا الأمل أمام طوفان اليأس والعذاب شحذ الشيطان أسحلته وتأهب لخوض معركة عادة ما يسهل الفوز فيها.

وحسم جهاز الهاتف صراع المرأة مع نفسها حين قررت أن تصادق رجلاً آخر تشكو له حظها وتشعر معه بشوق الرجل وحبه للأنثى. كانت الزوجة عطشي إلى قطرات الحب التي تروي أنوثتها وتنعش روحها. فالمرأة هي المرأة وعلينا أن نعترف بإنسانيتها قبل أنوثتها وبحقوقها قبل واجباتها وليس من الإنصاف أبدًا أن نلوم المرأة ألف مرة لو أخطأت بل يجب على الرجل أن يبحث في نفسه وذاته عن أسباب خطأ المرأة لو أخطأت، فالمرأة في مجتمعاتنا حظيت بحقوق ثابتة كفلها لها دين قيم وعقيدة سمحاء، كرمها الإسلام دينا وشريعة وحفظ لها حقوقها وانعكس ذلك بالتإلى على وضعها الاجتماعي وقيمتها كإنسانه.

والهاتف يحمل كل يوم العديد من المكالمات الخطأ أو المتعمدة كما هي العادة في بلادنا وقد سبق لها أن أغلقت سماعة الهاتف في وجه كثيرين حاولوا مغازلتها فلم لا تتخير أحداً من هؤلاء وتدير معه حديثًا هادئًا فقط على الهاتف كإنسانه تشكو له معاناتها وآلامها كامرأة طاف بعقلها يوماً ما حلم رائع بإنسان يحتويها ويصب حبه دافئاً معطراً في قلبها ويحوطها بحنانه ورعايته ورجولته ويعوضها عن ضياع زوجها، ذلك الوحش الكاسر الذي يتلذذ بتعذيبها وإهانتها والذي تشتد آلامها وعذابها وتتحطم نفسيتها، خاصة حين يتعمد إظهار سيطرته كسيد المنزل حسب مفهومه القاصر أمام الضيوف من أهله فيصب جام غضبه وأقسى إهاناته عليها لأتفه الأمور وأوهي الأسباب، ولم يكن قد تبقي من صبر تلك المرأة شيء بعد أن حاصرتها حوائط اليأس ومشاعر الإحباط.

أمضى الرجل ليلته في سهرته اليومية التي امتدت حتى الواحدة صباحاً بعد انتهاء أعماله الخاصة مع رفاقه العابثين ثم انطلق بسيارته في الشوارع الهادئة متوجها إلى منزله، أوقف سيارته في مدخل المنزل وترجل بهدوء ودلف إلى منزله ولم يكن هناك من شيء يشق صمت الليل وهدوئه سوى أصوات مكيفات الهواء.

وفي الصالة الرئيسية تناهي إلى سمعه صوت ضحكات صادرة من غرفة نومه ومشي على أطراف أصابعه متلصصًا ليفهم ما الذي يجري، وكانت العادة أن يأتي الرجل في هذا الوقت ليجد امرأته نائمة مع وليدها في غرفتها وها هو الآن يستمع إلى صوتها يصدح بالضحك.

دفع باب الغرفة ليجد زوجته ممسكة بجهاز التليفون وليس للنوم أثر على وجهها. تجهم وجه الزوجة حين رأته ومضت تحدث الطرف الآخر بصيغة الأنثى ثم استأذنت لحضور زوجها وأغلقت الهاتف. توقف الزوج مكانه وهو ينظر إلى زوجته نظرة غير مفهومة لكنها تعني الكثير، وانتظرت هي أن يطلق عليها موجات السباب الليلية والإهانات المعتادة لكنه لم يفعل ولزم الصمت، ثم بدل ملابسه ولم ينم وحاولت الزوجة كالعادة أن تقدم له طعامًا فأبي بكل هدوء. استغربت المرأة وتعجبت من زوجها وأحست فجأة كما لو أن زوجها هذا الواقف أمامها كان رجلاً آخر غير ذلك الرجل، وأحس الزوج حين سمع زوجته تتحدث مع أحدهم على الهاتف أنه كما لو كان قد ضرب بقضيب من حديد فوق رأسه وساوره شعور هائل في تلك اللحظات أنه يقترب من هاوية لا يدرك سوء قاعها، مجهولة النهاية.

هاجمته مشاعر مختلطة ظلت تضغط على أعصابه وهو جالس في شرفة منزله، أحس بالمهانة والضعف واكتشف في لحظة كم كان مخطئًا حين ترك لنزواته العنان وحين أهان زوجته وحطم كرامتها وإنسانيتها ونفسيتها.

بكي الرجل في نشيج مكتوم ووجهه يستند إلى ساعده على سور الشرفة، وفجأة هزه صوت المؤذن وهو ينادي لصلاة الفجر: الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله . أحس ساعتها أن دموعه كانت تنساب داخل صدره وقلبه لتغسله وتطهره من الآثام.

كانت الزوجة تراقب زوجها من طرف خفي ولم تصدق نفسها حين شاهدت زوجها يتوضأ ويبدل ملابسه ويغادر المنزل، سألته في قلق ودهشة ماذا بك وأين تذهب الآن؟! احتواها بين ذراعيه في حنان لم تذقه منذ زمن طويل وقبلها على رأسها وغادر المنزل في صمت. فهمت الزوجة سر تغير زوجها، إلا أنها لم تكن سعيدة بتحوله إلى الأفضل؛ لقد فات الأوان وزلت قدماها وتغيرت هي الأخرى لكن إلى الأسوأ بعد أن دفعها إلى هاوية السقوط زوج أحمق وأغواها شيطان رجيم.

[{وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} ^ (الأعراف:153)

الأســـــــوار

تتشرب الروح الأسيرة وتتشبع بالحزن والرغبة في الانفلات من القيود التي تكبلها. والإنسان هو الإنسان يولد حرا وينطلق من رحم أمه صارخًا وتعبر صرخته الأولى عن فرحته بالخروج إلى آفاق الحرية والانطلاق إلى الحياة الرحبة بكل معانيها. والقسوة الحقيقية التي تذبح النفس والروح هي قسوة القيود أيا كان نوع تلك القيود سواء كانت من حديد أو من حرير.

ومن الطبيعي جدا، بل من البديهي أن يحاول الإنسان دائمًا كسرها وتحطيمها مهما كان الثمن حتي ولو وصل الأمر للتضحية بحياته أو بأغلى ما يملك لقاء الإحساس فقط، الإحساس بطعم تلك الحرية التي ينشدها ويبتغيها.
وخلال سعيه للوصول إلى ذلك الهدف فإنه يدوس في دربه أغلي القيم ويتخلى عن مبادئه الإنسانية ومعانيها القيمة الغالية في ظل الخوف والرهبة وانعدام الثقة، وتكون النتيجة دائمًا مرارة الحسرة وجحيم الندم الذي لا يصلح ما فسد ولا يعيد أبدًا ما ضاع، وتظل هناك داخل النفس ندبة كبيرة تشوه الحياة وتضفي جوا من الكآبة والحزن الدائمين على وجه الإنسان وروحه ما بقيت الحياة وامتد أجلها.
الخامسة والنصف صباحًا في أحد أيام النصف الأول من مايو تعني في بلادنا في ذلك الوقت صباحًا أشرقت شمسه منذ أكثر من نصف الساعة، حيث يعانق نور الشمس بلادنا قبل أن تدق الخامسة صباحًا بقليل، وبدت الشوارع هادئة تمامًا في ذلك الحي الراقي الذي يمتاز بحداثة مبانيه وفيلاته المبنية على الطراز الأوربي تحوطها الأسوار العالية ذات البوابات الحديدية القوية. وفي إحدى هذه الفيلات تمتد الحدائق الصغيرة بأشجارها وحشائشها في مربعات أرضية أو مستطيلات بين الفيلا وبين الأسوار تتخللها ممرات ومشايات، وفي الجهة الأمامية للفيلا المواجهة للبوابة الرئيسية فناء واسع توجد على جانبه بعض طبيلات السيارات ملاصقة للسور، تقبع داخلها عدة سيارات فخمة وحديثة. أشجار الليمون والكنار عفية ومزهرة على جانبي الفيلا وثمة عصافير وحباري تتقافز فرحة فوق أغصانها تصدر زقزقاتها وتغاريدها الصباحية قبل انطلاقها إلى وجهاتها لتلتقط أرزاقها المقدرة، وهنا وبالتحديد في مواجهة إحدى شجيرات الليمون تقع إحدى غرف تلك الفيلا في الطابق العلوي، عُبقت أركانها وهواؤها بعطر رقيق يفوح من جسد تلك الفتاة المستلقية بنعومة على فراشها وخصلات شعرها الطويلة حائرة ومبعثرة على الوسائد والفراش، وكانت تقاسيم وملامح وجهها شاحبة ومتعبة بشكل يوحي بأنها لم تذق للنوم طعمًا، بل وكأنها تعاني من حالة ضيق شديد وآلام نفسية هائلة.
كانت الفتاة في حقيقة الأمر امرأة مطلقة بلغت الثالثة والعشرين من عمرها منذ شهور قليلة مضت باعتبارها احدى ضحايا التحجر العقلي والجمود الفكري والجهل الذي يصيب بعض الآباء في مجتمعنا، بل ويمتد تأثيره أحيانا ليصيب شباب الأسرة وأحيانًا تكون الأم إحدى ضحاياه.
ليس من العقل أو الإنسانية أن يفرض على الفتاة زوجًا لا تريده ولا ترغبه أو يفرض على الشاب زوجة لا يريدها ولا يرغبها، وأيضًا ليس من الدين والعقيدة.. لكن للأسف تظل بعض العقول مبرمجة على الخطأ برغم وضوحه وبرغم قناعة تلك العقول وإيمانها بذلك وبرغم الأبعاد القاتلة والمأساوية التي تترتب على التمسك بتلك المفاهيم الخاطئة والضارة والتي تنعكس في نهاية الأمر على أصحابها فقط في صور انحراف أو جريمة أو طلاق وانعكاسات ذلك على الأسرة وأفرادها وسمعتها.
تربت تلك الفتاة وسط جو قاتل من الممنوعات والرقابة الشديدة في المنزل وكأنها عدو خطير يجب مراقبته ومتابعة خطواته خطوة خطوة. كل شيء يمس حياتها مقيد بقيود ثقيلة الوطأة برغم أنه لا داعي أبدًا لذلك، الفتاة تملك عقلاً نيرًا ونفسية متزنة وإيمانًا قويا، ولِمَ لا؟! فقد نشأت في بيئة عربية شرقية ومسلمة لكنها وجدت حقها يذهب أدراج الرياح في أبسط ما يجب أن يكون لها حق فيه وهو حياتها ومستقبلها وأيضًا في ظل نطاق مشروع بالعقيدة الإسلامية السمحاء والعرف الإنساني السليم.
وجدت الفتاة نفسها في لحظة يجب فيها أن تختار وتوافق على شريك حياتها وهي تساق إلى زوج ورجل لا تجد في نفسها ذرة قبول له أو ميل تجاهه أو حتي أي توافق نفسي وعقلي. اللهم ليس سوي أنه ابن عمها، لكن تبقي إنسانيتها وروحها وعاطفتها التي لا تستطيع فيها الفتاة كإنسانه أن تصب عاطفتها كيف وأني شاءت حسب طلب الآخرين من أهلها.
بدأت المأساة بالقيود الكئيبة والشك وانعدام الثقة التي تحوطها من كل جانب، فكل حركة أو سكنة يمكن أن تفسر تفسيراً خاطئاً حسب أهواء من يريد أو يشاء من رجال الأسرة. وشكلت تلك العناصر ضغطًا رهيبًا خانقًا يحطم أعصابها ويدمر نفسيتها لكنها كالكثيرات تعايشت مع ذلك الوضع وتأصل الخوف والرهبة في نفسها لدرجة بات معه الأمر عادياً وبقيت العاطفة مخبؤة في القلب والوجدان إلى أن كان ذات يوم خرجت فيه الفتاة مع أمها للتسوق وشاء القدر أن تلتقي عينيها بعيني ذلك الشاب وهو يسير إلى وجهته داخل السوق، والتقت المشاعر مع العيون في تلك اللحظة وتوقف الزمن في تلك البرهة ليرسم القدر فيها قصة مأساوية هائلة بدأت بدموع الحب والعشق وانتهت بدموع المأساة والندم حين ضاع الشرف والحب معاً ضحية لتقاليد عقيمة وفكر جامد ومدمر.
توقف الشاب عن السير واستدار خلفه وكانت هي في نفس اللحظة تلتفت خلفها والتقت عيونهما ثانية، ودار حوار صامت بين قلبي الفتى والفتاة خلال تلك الالتفاتة، وعاد الشاب أدراجه خلفها وهو يشعر برجفة هائلة تعتريه، ودخلت الفتاة برفقة والدتها إلى أحد محلات السوق وأخذ الشاب يتسكع مضطرباً وملتفتًا حوله إلى أن وضعته أقدامه أمام فاترينة المحل الذي دخلته الفتاة، وكان أحد محلات الملبوسات وفكر الشاب بسرعة في كيفية الوصول إليها، وبالفعل دلف إلى داخل المحل وأخرج بطاقته في هدوء شديد وأخذ يتنقل بين أقسام الملبوسات وهي تراقبه بطرف خفي وتحركت هي الأخرى وكأنها تتفحص إحدى القطع واقتربت منه وترك الشاب بطاقته في جيب قطعة ملابس مجاورة وكانت تراه ثم ذهب إلى حال سبيله بقلب يقفز بين ضلوعه وبكل هدوء التقطت الفتاة البطاقة ودستها في ملابسها وانطلقت نحو أمها لتكمل معها شراء ما تحتاجانه من ملبوسات.
عادت الفتاة إلى منزلها برفقة والدتها ودخلت غرفتها وأخرجت البطاقة وهي تكاد تطير من الإحساس بذلك الشعور الغريب بالخوف والمغامرة والإعجاب بذلك الشاب الذي خطف قلبها وهز مشاعرها. لم يكن الوضع مطمئنًا حين فكرت في الاتصال بذلك الشاب، فقد كان الأهل بالمنزل لا يسمحون باستعمال الهاتف إلا تحت مراقبة ومعرفة من تحادثها الفتاة من زميلاتها وصديقاتها، لكن كان هناك أمل، نعم

بصيص من أمل وما عليها سوي أن تتحين الفرصة وتحادثه. وبالرغم من أن أشقاءها كل منهم يملك هاتفًا خاصا به إلا أنها وهي البنت الوحيدة لا تملك هذا الحق، والهاتف موجود بالصالة ولم يكن من بد سوي التسلل ليلاً حين ينامون لتحاول الاتصال بذلك الشاب.
وبالفعل وفي وقت متأخر دق الهاتف في غرفة الشاب وجاءها صوته هادئاً واثقاً وأجابته، وتلعثم الفتي وهو يبلع ريقه مضطرباً واعتذرت له عن ظروف الاتصال الصعبة وبدأت قصة حب جارفة هام خلالها الشاب بتلك الفتاة وهامت به.. وتوالت الأحلام والآمال كل ليلة حسب الظروف.
وفي الوقت الذي هم فيه الشاب بالتقدم لخطبتها كان القدر يدق أحلامها بقبضته القاسية حين تقدم ابن العم المشهور بلهوه وسفاهته ليطلب يدها، ودائمًا هنا تكون الإجابة نعم لابن العم دون تقدير لمشاعر الفتاة أو احترام لإرادتها واختيارها.
بكت الفتاة طويلاً وذرفت مع الفتي دموع الحزن وتحطمت نفسيهما، ومن هنا بدأت المأساة الحقيقية في هذه القصة. بدأت عجلة الزواج في الدوران والبنت مازالت في السنة الثانية بالجامعة ومع كل يوم يقترب فيه حفل الزواج كانت الفتاة وحبيبها يعيشان أزهي أوقات الحب والحزن معاً ويتشبثان بوميض أمل بارق في أفق المستقبل.
تزوجت الفتاة من ابن عمها وعاشت معه بجسد لا حس فيه وقلب وروح ومشاعر تعيش هناك على الجانب الآخر مع ذلك الشاب، وكان لابد لشجرة الحب أن تكبر وتنمو مادامت لم تمت. ومن البديهي والطبيعي أن تتغذى تلك الشجرة وترتوي لتواصل نموها وأصبح الأمر سهلاً وهي تعيش في بيت مستقل مع زوجها تخرج كما تشاء مرة لزيارة صديقة ومرة لخياط الملابس ومرة للتسوق ومرات للمستشفي. لم تبخل الفتاة على حبيبها بكل ما تملك المرأة، ولم يقصر الشاب فنهل من ينابيع جمالها حتى ارتوى وبدأت المشاكل مع الزوج اللاهي العابث وانتهت بالطلاق بعد زواج قصير الأمد، ولم يكن هناك مفر من اغتنام الفرصة فها هي الآن أصبحت حرة ومطلقة، ولن يمانع الأهل في زواج ابنتهم المطلقة لو تقدم لها أحد الشباب، وفاتحته الفتاة في ذلك الأمر وبدأ الشيطان يكشف عن وجهه الحقيقي حين بدأ بالتهرب من ذلك الأمر والتسويف والمماطلة وأخيراً كانت المواجهة الصريحة حين أخبرها أنه لن يتقدم للزواج منها وأنه لا يستطيع ذلك بحكم كونها مطلقة، ومع الحوار سقطت أقنعة الشاب واتضح زيف مشاعره حين اتهمها في شرفها وأن الإنسانه التي فرطت في شرفها معه لن تتورع عن التفريط فيه لغيره. كانت الصدمة هائلة على روح الفتاة ونفسها وأحست في لحظة يأس رهيبة أنها منحت كل ما تملك لمن لا يقدر ولا يستحق.
ولم تنم الفتاة ليلتها حتي غردت بلابل الفجر مؤذنة بشروق شمس يوم جديد يحمل الأمل ويبشر بمستقبل يستطيع الإنسان أن يرسمه بإيمانه وإرادته تحت رحمة الله كما يشاء. نهضت الفتاة متثاقلة كأنها بلغت من عمرها سن الكهولة. نظرت في المرآة ثم أزاحت جدائل شعرها عن وجهها بيدها وحركت وجهها الشاحب ثم انفجرت باكية أمام حائط اليأس وجدار الصدق.
ولم يكن لها من بد سوي اللجوء إلى الباب الأخير الذي يسع البشر على كثرتهم والذي لا يوصد في وجه بشر أو مخلوق، إنه باب رحمة الله ومغفرته.

[{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ}. ^ (النور: 21)
جحود ونسيان
كان الظلام يرخي سدوله على المدينة في هزيعه الأخير، ولم يكن يحرك سكونه في تلك اللحظات سوي أنين خافت يصدر من نافذة صغيرة لبيت قديم في ذلك الداعوس الضيق بأحد الأحياء القديمة التي هجرها سكانها الأصليون إلى أحيائهم الراقية بعد التغيرات المادية التي طرأت وغيرت وجه الحياة في بلادنا، وحل محلهم سكان وافدون من بلاد أخري، تململ الخادم الآسيوي من تلك الأنات المتواصلة الصادرة من ذلك العجوز المريض في الغرفة المجاورة ونهض الخادم من فراشه وهو يلعن حظه الذي رمي به مع ذلك العجوز المريض ليقوم على خدمته وهو الذي قدم من بلاده سعياً لكسب المال وجمعه بعد أن ضاقت به سبل العيش والحياة في بلاده.
لاحظ الخادم أن أنات العجوز بدأت تخفت وتتقطع بشكل ملحوظ مقارنة بقوتها وتسارعها في أول الليل، كان العجوز خلالها يغفو قليلاً ثم تعاوده الآلام فتتوالى أناته بعد أن ساءت حالته في الأيام الأخيرة، وبالرغم من سخط الخادم وضيقه بخدمة العجوز إلا أنه كان يشفق عليه، وكان سخطه يزداد حينما يعاود الاتصال بأبنائه ويكرر اتصاله بهم مرات حتى يأتوا ليروا أبيهم بعدما ساءت حالته.
وراوده شعور قوي بأن العجوز يعيش لحظات حياته الأخيرة ففتح عليه باب غرفته وألقي نظرة على ذلك الجسد الضعيف الواهن الذي تبرز عظام وجنتيه بشكل بارز وتحوط مقلتيه دائرتان ظهر لونهما غامقًا في ذلك الوجه الباهت الذي ترف عليه ظلال الموت.
كان العجوز المسجي في فراشه والذي يعاني سكرات الموت يبلغ عمره حوالى سبعين عاماً، توفيت زوجته الطيبة الوفية قبل سنوات قليلة وكانت تعيش معه في ذلك البيت القديم بعد أن تزوج الأبناء وانتقلوا إلى بيوتهم الحديثة التي وفرتها لهم الدولة في الأحياء الجديدة الراقية.
ثلاثة أبناء وبنت واحدة كانت أصغرهم تبلغ الثالثة والثلاثين من عمرها تزوجت وعاشت مع زوجها هانئة في المدينة البعيدة التي يعيشان بها، وكانت تأتي على فترات متقاربة نوعًا ما لتزور أمها وأبيها وحين توفت والدتها قلَّت زياراتها لأبيها معتمدة على رعاية إخوانها له خاصة وهم قريبون منه ويعيشون معه في نفس المدينة.
وكانت تلك الابنة تفيض حنانًا على أبويها لكنها امرأة متزوجة تعيش بعيدًا مع زوجها وأبنائها وتشارك زوجها في تحمل مسئوليات الأسرة.
الابن الأكبر في الرابعة والأربعين من عمره يتبوأ منصبًا محترمًا ووظيفة جيدة بعد أن أكمل دراسته الجامعية في إحدى الدول الأخرى، متزوج من حسناء ملكت زمام عقله وعواطفه وأسَرته بشخصيتها وسيطرت تمامًا على إرادته.

الابن الثاني بلغ الثانية والأربعين، تزوج بالرغم من إرادة أهله ودون موافقتهم وعاش مع أسرته يمارس وظيفته في إحدى الوزارات كما يمارس بعض الأعمال الحرة لمواجهة متطلبات زوجته واحتياجها المتزايد للمال.
أما الابن الثالث فكان في السادسة والثلاثين من عمره ويعيش مع أسرته أيضاً في نفس المدينة.
لم يكن هناك من شك في أن الأبوين دفعا عمرهما معًا ثمنًا لتربية أولئك الأبناء، ولم يبخل الأب أبدًا على أبنائه ليعلمهم ويربيهم كأفضل ما تكون التربية رغم محدودية دخله حين كان يحرم نفسه ليعطي أبناءه وليوفر لهم حياة كريمة وتربية سليمة.
وكأنما أراد الله أن يجزي أرضنا ومن عليها خيراً تعويضاً لآبائنا وأجدادنا عن صبرهم ومعاناتهم وإيمانهم فبدأت الأرض تقذف بخيراتها وأخذ وجه الحياة يتغير بكل معاني الكلمة، ومع تلك التغيرات التي طرأت على حياة البشر في بلادنا تغيرت معها نفوس البشر أيضاً، وتداخلت أنماط وقيم جديدة في حياة المجتمع مع أنماط الحياة القديمة وقيمها.
وبرغم الطابع التقليدي الأصيل الذي يميز وجه الحياة في مجتمعاتنا إلا أنه وبالفعل حدثت تغيرات عميقة أفرزتها الثروة، تأثرت بها نفوس البشر وطبائعهم إلى حد كبير.
فكر الخادم في معاودة الاتصال بالابن الأكبر بعد أن يأس من جدوى الاتصال بالأبناء الآخرين وبالابن الأكبر أيضًا؛ حيث الهواتف دائمًا ما تكون مشغولة أو أن زوجاتهم يردون على الهاتف ولا يهتمون بإبلاغ أزواجهم. وبالرغم من الوقت المتأخر ويقينه بأنه سيتلقى سيلاً من السباب والتعنيف إلا أنه كان لابد من إبلاغ الأبناء بحالة والدهم الصحية السيئة وذلك للتصرف ونقله إلى المستشفي مرة أخري.
دق الخادم رقم الابن الأكبر بعد لحظات بدت طويلة رفع الزوج سماعة الهاتف ورد مستفسرا بصوت مليء بالنعاس فأجابه الخادم شارحًا له حالة والده الصحية، وسادت لحظة من الصمت تخيل الخادم وقتها أنه عاود نومه مرة أخري وجاء الصوت مرة أخري ليستوضح من الخادم ما قاله حول والده وعاود الخادم إبلاغه بالحالة الصحية السيئة لوالده فطلب منه الابن أن يظل بجانب والده إلى أن يأتي وينقله إلى المستشفي.
تململت الزوجة في فراشها متأففة من تلك الأخبار السيئة في ذلك الوقت وأخذت تتحدث بصوت غير مفهوم يملؤه النعاس والضيق. نهض الابن من فراشه وجلس على حافته وهو يفكر فيما سوف يفعله تجاه والده الذي طالت معاناته من المرض والذي انتقل إلى المستشفي للعلاج أكثر من مرة، دلف الابن إلى الحمام الملحق بغرفة نومه ليغتسل ثم ارتدي ملابسه وقاد سيارته باتجاه منزل والده.
عاودت العجوز آلامه مرة أخري فانطلقت أناته تشق سكون الليل ضعيفة واهنة، في حين وصل الابن بسيارته وأمام المنزل القديم أوقفها ثم غادرها ليرى والده وأمام النافذة المطلة على الداعوس، اهتز قلبه حين سمع صوت أبيه وهو يئن من آلامه فراوده إحساس جارف بالحب والشفقة بشكل لم يجربه من قبل وانطلق إلى غرفة أبيه، وعلى باب الغرفة وقف الابن يطالع جسد والده المسجي على الفراش يعاني آلام المرض والتقت عيناه للحظة بوجهه الشاحب أحس وقتها كأن هناك قبضة قوية تعصر قلبه، واغرورقت عيناه بالدموع ثم مال على والده ليحتضنه وانفجر باكيًا، وبعد برهة تناول سماعة الهاتف ودق رقم هاتف الإسعاف طالبًا سيارة لنقل والده إلى المستشفى ثم اتصل بشقيقيه لإبلاغهما بحالة والدهما وبما فعله بشأنه.
وصلت سيارة الإسعاف ونقلت العجوز إلى المستشفى وفي غرفة العناية الفائقة نام على فراشه وبجانبه جلس ولده الأكبر وهو ينظر إلى وجه والده بحنان بالغ وشعور قوي بالتقصير والندم وكأنه أحس فجأة بعاطفة البنوة تجاه والده وبشكل لم يحدث من قبل، ومر على ذاكرته شريط من الذكريات آلمه بعنف حين تذكر والدته تلك المرأة الطيبة الحنونة التي كانت تفيض حنانًا عليه وعلى إخوته.
مر وقت طويل أشرقت خلاله شمس النهار قوية في ذلك الصباح قبل أن يصل شقيقاه تباعًا لرؤية والدهم، ثم انصرفا قبل أن ينتصف النهار وظل الابن الأكبر مع والده حتي استقرت حالته الصحية ثم انصرف. استقرت حالة العجوز الصحية وتعافي قليلاً وأصبح قادراً على الحركة، إلا أنه فقد ذاكرته تماماً ولم يعد يتذكر شيئًا إلا أنه وخلال أوقات محدودة يستطيع أن يتذكر بعض الأحداث وأسماء بعض أحفاده.
وحان وقت مغادرته للمستشفي ولم يعد المنزل القديم ولا رعاية الخادم تصلح لعجوز فقد ذاكرته ويعيش على هامش الحياة حيث أصبح يحتاج إلى عناية خاصة واهتمام ومراقبة حالته. ولم تكن أي من زوجات الأبناء الثلاثة على استعداد للقيام بتلك المهمة أبداً، بل كن يتأففن من مجرد الحديث حول العجوز ومشاكله الصحية، ولم يكن هناك من مفر سوى مأوى العجزة، وبالفعل اتخذ الأبناء الثلاثة قرارهم ولم يبق إلا تنفيذ ذلك القرار.
توقفت السيارة أمام ذلك المبني المخصص لرعاية العجزة وغادرها العجوز متكئًا على كتف خادمه الذي ظل بجانبه يرعاه فترة طويلة تأفف خلالها كثيرًا لكنه الآن يشعر بموجة من العطف والشفقة عليه، وانحدرت دمعتان فوق خده مسحهما بأكمام قميصه. تمت إجراءات إقامة العجوز بمستشفي رعاية العجزة.
وقام أبناؤه بزيارته خلال فترة إقامته الأولي، وظلت زياراتهم تتباعد إلى أن انقطعت تمامًا وظل العجوز إلى تلك اللحظة بغرفته، وأبناؤه يعيشون حياتهم هانئين وفاقد الذاكرة ينتظر لحظة النهاية.
هكذا كان، وهذا ما سوف يكون دائمًا حين يفقد الإنسان أسمي المشاعر وينزفها على مذبح دوامات الحياة.

[{ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً }. ^ (الإسراء:24)

ثمن النزوة

الليلة الثامنة والعشرون ليلة هادئة ومعطرة بالتسابيح في شهر رمضان، بدت فيها السماء بنجومها وبصفائها كلوحة هائلة من المخمل الأسود، تتناثر عليها قطع من الألماس والزمرد وتعطر جو المدينة خلال تلك الليلة بأصوات التسابيح وآيات الذكر الحكيم في صلاة التراويح، وكانت السماء وكأنها تمطر المغفرة والرحمة والبركة على المدينة وساكنيها.

لا شيء يعكر صفو تلك الليلة وهدوءها تقريبًا ككل ليلة في مدينتنا التي يعمها الأمان وتغشاها الدعة والسكينة. ويكاد المرء هنا أن لا يساوره أدنى شعور بالقلق أو التوتر أو الخوف، فالجميع فيها يعيشون في رغد وطمأنينة ورفاهية أغدقتها عليهم السماء ورزقتهم في نفس الوقت أولي أمر حكماء مخلصون وأوفياء، حكموا عدلاً وأخلصوا عملاً وأوفوا عهداً.

لكن الشر في الإنسان نزعة كامنة تتحين الفرصة للانطلاق تحت ظروف مواتية تحتاط الإنسان نفسه وتظل تضغط على أعصابه وتحطم مقاومته، وإذا لم يتمكن من الإفلات منها فإن حتمية السقوط تصبح حقيقة ماثلة لا شك فيها إلى أن يحين وقته وتأتي ساعته. وإلى أن يأتي ذلك الوقت تظل نزعة الشر في الإنسان متوهجة ثم تأتي نتائج السقوط لتطفئ هذا التوهج ويبقي الرماد ندماً يمزق النفس ويعصرها ليكتشف الإنسان في نهاية الأمر أنه الخاسر الحقيقي بسبب تلك النزعة.

ففي الوقت الذي كانت فيه عجلات الطائرة القادمة من أوربا تلامس أرض مطار مدينتنا بركابها، كانت سيدة أحد المنازل الراقية تضع اللمسات الأخيرة من ماكياجها أمام المرآة وهي تشعر ببعض التوتر وتصدر الأوامر لخادماتها في عصبية ظاهرة؛ فرجل المنزل على وشك الوصول، بل ربما كان في طريقه لإنهاء إجراءات وصوله داخل قاعة المطار في تلك اللحظات. وبالفعل كان الرجل الوسيم صاحب الوظيفة الممتازة والذي يؤدي عمله خارج البلاد بصفة مستمرة يأتي في زيارات قصيرة وعلى فترات متقطعة قد أنهي إجراءات وصوله وغادر المطار ليستقل السيارة التي كان يقودها ذلك السائق الآسيوي والخاصة بأسرته.

ووضع السائق الحقائب بالسيارة وجلس السيد بجواره بعد أن سلم عليه وتبادل معه حديثًا قصيراً، لكنه كان حديثًا من النوع الذي يحمل في معانيه أهمية كبرى استرعت اهتمام الرجل بشكل وضح فيه الفزع على قسماته وأخرج السائق من ملابسه أحد أشرطة الكاسيت وضعه الرجل بيده في مسجل السيارة ليستمع فيه إلى دليل صريح على خيانة زوجته. تماسك الرجل بعدها واستعاد هدوءه بصعوبة بالغة راح بعدها في تفكير عميق وصمت لم يقطعه سوى وصوله إلى منزله.

بدأت أحداث تلك القصة منذ ثلاث سنوات تقريبًا حين بدأ إهمال الزوج لزوجته، ولاحظت الزوجة بفطرتها فتور زوجها من ناحيتها بشكل بدت معه كل الأعذار واهية وضعيفة أمام إهمال الزوج لها، برغم أنه يعيش بعيدًا ويأتي في زيارات متقطعة وعلى فترات متباعدة وتمتد تلك الزيارات إلى ما يقارب الشهرين أحياناً، ولم يكن الأمر كذلك فقط بل إن الزوج ومنذ تلك الفترة تقريبًا ترك زوجته في مدينته وحيدة مع أبنائها وبناتها بعد أن كانت تعيش معه في أماكن عمله في الدول الأخرى بشكل شبه دائم. وأحست الزوجة إحساساً يصل لدرجة اليقين أن هناك أخرى دخلت حياة زوجها واقتحمتها؛ فلعبت برأسها الوساوس والظنون وأصرت على التأكد من ظنونها وهواجسها، ولم لا فهي امرأة على قسط وافر من الحسن والنضوج، وهي إلى جانب ذلك سيدة مجتمع تعرف بأنوثتها وخبرتها كيف تتسلل النساء الأخريات إلى حياة الأزواج وكيف يسقط الزوج في حبائل امرأة أخرى تدمر عليه حياته وتزلزل استقرار عائلته ربما بدافع حسنها وفتنتها وأنوثتها التي قد تفوق ما تمتلكه الزوجة من أنوثة وجمال، وربما أيضًا بدافع الملل الذي قد لا تعرف له أسباباً أو قد تكون تلك الأسباب معروفة كإهمال الزوجة لنفسها وعدم فهمها لنفسية زوجها ونسيج عواطفه وأحاسيسه.

والرجل بطبيعة الحال وبفطرته قد يمتلك زوجة هائلة الجمال ورائعة الحسن وفاتنة الأنوثة إلا أنه حين يرى امرأة أخرى يختلف طعم جمالها وأنوثتها عن زوجته، فقد يتمناها في قرارة نفسه ويكتفي بذلك أو يلاحقها وهنا من الممكن جدا أن يهوى إلى قرار لا نهاية له، ويقع أسير هواها وحبها، وتلك هي المشكلة الكبرى.

قطعت الزوجة أمرها واتخذت قرارها بالسفر المفاجئ إلى الزوج في مكان عمله في تلك المدينة الشهيرة بطبيعتها الرومانسية الخلابة. كان جو المدينة ببرودته وضبابه وغياب شمسه يحمل إلى عقل تلك السيدة نذيراً بالشؤم أحست به، فزاد قلقها وأخذت سيارة الأجرة بسائقها الأوربي العجوز تقطع الشوارع باتجاه عنوان بيتها بأحد أحياء المدينة، وخلال وقت قصير بدا وكأنه الدهر وصلت السيدة إلى منزلها وقلبها يكاد يخرج من صدرها قلقًا وتوتراً. دلفت الزوجة إلى مخدع زوجها ومع العطور النسائية المتراصة على التسريحة والملابس الداخلية بماركاتها الراقية المعلقة في الخزانات. تحول الشك إلى يقين وانقلبت الهواجس إلى حقائق دامغة لا تقبل الجدل. وتحولت الزوجة إلى امرأة جريحة في أنوثتها وفي حبها ومشاعرها.

إحساس رهيب وجارح بالانكسار اجتاحها في تلك اللحظات ولا شيء يعدل إحساس الأنثى بجرح كرامتها وطعنها في أنوثتها التي تعد رأسمالها الحقيقي في الحياة حسب اعتقادها، وتلك حقيقة لا تقبل الجدل.

استلقت المرأة على مقعد غرفة النوم وهي منهارة النفس وكسيرة الخاطر، واستغرقت في بكاء مر سال فيه دمعها بغزارة شوهت ماكياجها. هدأت المرأة قليلاً وقامت إلى الحمام فغسلت وجهها وأعادت ماكياجها مرة أخرى وأضحى جمالها مشوباً بالحزن. ورفعت سماعة الهاتف تطلب زوجها وفوجئ الزوج بتلك الزيارة غير المتوقعة. فتوجه إلى منزله يساوره شعور بالغضب والمفاجأة معاً.
اعترف الزوج بهدوء وثقة تصل إلى حد البلادة لزوجته بعلاقته غير الشرعية مع إحدى النساء وأخذت وتيرة العتاب تتصاعد حتى فقد معها الرجل أعصابه وأهانها بكل قسوة طاعنًا إياها في جمالها وعمرها وأنوثتها، وطلب منها أن تغادر في الغد القريب إلى وطنها على أن تعيش هناك في منزله وعلى ذمته كزوجة شرعية فاقدة الأهلية مع أبنائها وبناتها ويكفيها ذلك، أما حياته الخاصة فهو حر يمارسها كيف يشاء وأين يريد. لم يطل الوقت كثيراً، ما هي إلا ساعات لم تتجاوز الاثنين والسبعين ساعة حتى استقلت الزوجة الطائرة متوجهة إلى موطنها، لكنها حزمت أمرها وقررت أن تنتقم لأنوثتها وكرامتها الجريحة بالأسلوب الخاطئ وكما هي عادة النساء منذ الأزل. عادت الزوجة إلى مستقرها في بيتها عازمة على تنفيذ ما حزمت عليه أمرها، وما هي إلا أيام قليلة حتى بدأت أسلاك الهاتف تحمل أصوات الحب والغرام واختارت السيدة أحد الشباب الذي لم يتجاوز عمره الخامسة والعشرين، وشهدت لقاءاتهما حرارة لقاءات العاشقين وضاعت معها حواجز الدين والعرف والأخلاق وبدأت النزوة الحقيقية تتجاوز حدود المعقول إلى أبعد مدي.
كل بني البشر أحرار فيما يريدون وفيما يفعلون لكن هناك دائمًا في المقابل القوانين الإلهية والقدرة العظيمة التي تحكم الكون، فهناك مجرمون مؤجلون يفلتون من عقاب الدنيا إلى أن يمثلوا أمام العدل المطلق ليحاسبوا على آثامهم، وهناك تنفذ فيهم إرادة الله ومشيئته وهم أحياء ليكونوا عظة وعبرة.
وهؤلاء أعظم حظا من المؤجلين فأمامهم الفرصة للعودة إلى سبيل الرشاد وسوي الصراط وصالح العمل وباب الرحمة الإلهي مفتوح على مصراعيه للعائدين التائبين. كان السائق الآسيوي يأخذ السيدة كعادته إلى أماكن اللقاءات المحرمة بينها وبين صديقها، وكان في نفس الوقت يضمر لتلك السيدة حقدًا وكراهية بسبب معاملتها لإحدى الخادمات التي كان يقيم معها علاقة خاصة. وأصبحت الخادمة تراقب سيدتها داخل مخدعها ومضي هو يراقب تحركاتها خارج المنزل إلى أن جاءت ليلة من تلك الليالي التي تسهر فيها السيدة على الهاتف مع صديقها الذي لم تكتف معه باللقاءات، بل أرادت أن تسجل معه وبصوتها آهات العشق والغرام وبالفعل سجلت شريطًا يحمل على ذبذباته دليل خيانتها.
وكعادة سيدات المنزل ألقت الشريط في درج تسريحتها بإهمال فالتقطته الخادمة وأعطته للسائق الذي احتفظ به ليعطيه لسيد المنزل حين عودته. كانت فرصة ذهبية للسائق والخادمة ليدمرا تلك العائلة، إضافة إلى أن الخادمة بدأت تمد يدها وتسرق بعض قطع المجوهرات المتناثرة بإهمال فوق التسريحة وفي أدراجها خاصة في الأيام الأخيرة حين عاشت الزوجة تلك الفترة العصيبة التي جعلتها تهمل كل شيء حتى أبنائها وبناتها من أجل الهاتف الذي كانت تجلس إليه بالساعات دون ملل. هكذا شاء القدر أن تختم هذه القصة بشكلها المأساوي ولا شيء يرد القدر أو يمنعه. دخل الزوج إلى منزله متماسكاً وصافحه أولاده وقبلوه وبحياء وفتور مد يده ليصافح زوجته التي مدت إليه يدها دون شوق أو عاطفة وبعد أن استراح قليلاً طلب من زوجته أن ترتدي ثيابها لنزهة على الكورنيش.
وفي السيارة أخرج شريط الكاسيت وتوقف بسيارته في منطقة هادئة وخالية تقريباً من المارة وطلب منها أن تستمع معه إلى شريط الكاسيت. بالطبع لم يتمكن من الاستماع إلا إلى جزء بسيط من الشريط، وردت بهدوء: إني أنتقم لكرامتي الجريحة لأذيقك من نفس الكأس التي سقيتني منها. بادرها بصفعات متوالية على وجهها واستدار بالسيارة إلى منزل أهلها.. وهناك استمعوا إلى الكاسيت ومن هناك أيضاً كان الطلاق ثم إلى المجهول.
كان الأمر مجرد نزوة تحولت بها الأسرة إلى حطام وتحولت بها السيدة إلى امرأة محطمة لا تجد قوت يومها. وبدأ جمالها يذوي وعنفوانها يتلاشى أمام نظرات الناس خاصة صديقاتها اللاتي كن بالأمس يتمنين زيارتها وأصبحن الآن يغلقن الهاتف في وجهها. وعاش الأبناء والبنات أيامًا كئيبة ومرة ورءوسهن محنية أمام الأقران.
كانت نزوة من أم لم تع مسئوليتها ولم تع أبعاد نزوتها التي انسحبت آثارها المدمرة على بشر آخرين منها لم يكن لهم من ذنب إلا أنها كانت لهم الأم والعدو معاً.

[{أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ}. ^ (محمد:14)

درب الضياع
هل يولد الشر في نفس الإنسان وروحه يوم مولده؟ وهل تنمو بذوره داخل النفس البشرية كأمر فطري وطبيعي باعتباره إنسانًا؟ أم هل يتشرب الإنسان الشر وتتلوث به روحه بفعل ظروفه وبيئته ومجتمعه؟ نموذج غير عادي من البشر، وعينة إنسانية تجمع كل المتناقضات في صفاتها وخصائصها. وربما كان الأمر بفعل البيئة والمجتمع، وربما كان بفعل الظروف النفسية والأسرية، وربما كان القدر.
كان المصلون قد انتهوا من صلاة العصر في المسجد المجاور والذي لا يبعد عن ذلك المنزل العربي التقليدي القديم بأكثر من مائة متر، حيث توقفت سيارة الأجرة أمام بابه واندفع سائقها في ذعر ليطرق الباب بقوة وركضت الصبية الحسناء باتجاه الباب الخارجي لتفتحه وناداها السائق لتساعده في حمل جثمان أبيها إلى داخل المنزل.
انطلقت صرخة هائلة من الصبية حين رأت الموت يخيم بظلاله على وجه ذلك الأب الحنون الذي كان يمثل كل حنان العالم ودفئه وحبه بالنسبة لها. وسكن الحزن واستقر في وجدان تلك الصبية العربية اليافعة على رحيل ذلك النبع الرقراق المتجدد من حنان الأبوة ودفئها،

وداهمها إحساس مخيف بالبرودة وهي تتخيل مدي عبء مسئولياتها تجاه إخوتها وأخواتها في ظل وجود أم شبه عاجزة عن الحركة وشقيقتين صغيرتين وصبي ثالث بدا وكأنه خرج من ينبوع شقاوة لا يهدأ عن الحركة والمشاغبة وبرغم ملامحه الهادئة إلا أن ذلك الهدوء كان قناعا يخفي تحته روحاً ممزوجة بفيض من الحنان والقسوة ورقة الطبع وحدة المشاعر وإشارات تنبئ عن مواهب وليدة لا تستلفت الأنظار.
تحملت الصبية مسئولياتها بشجاعة وإصرار وتقمصت دور الأم وهي لم تكد تتجاوز بعد مرحلة المراهقة. وانتظمت أمور الحياة داخل المنزل وسارت الحياة سيرها الطبيعي دون عوائق.
إلا أن الوضع خارج المنزل بالنسبة لذلك الصبي أخذ بعدًا آخر لم تكن تستطيع تلك الصبية غضة العود مع ظروف المجتمع والأسرة أن تسيطر عليه أو تعالجه. كان من الطبيعي جدا أن يقضي ذلك الصبي جل وقته بعد دوامه الصباحي في مدرسته في اللعب مع أقرانه من الأولاد في شوارع الفريج ودواعيسه.
ومضت الأيام تتوإلى وكبر الصغار وبدأت الحياة تأخذ طابعًا آخر بعد أن كبرت الصبايا ونضجن وامتلأن بالأنوثة والجمال، خاصة تلك الصبية التي تحملت مسئوليات إدارة المنزل ورعاية الأخوات.
تماثلت الأم للشفاء بقدر ما شاءت إرادة الله وحكمته بشكل أهلها لأن تتولى القيام بجزء كبير من دورها، وكان الأمر في غاية اليسر حيث أصبح الأولاد في سن يسمح لهم بالاعتماد على أنفسهم وتقديم المساعدة القيمة في شئون المنزل بعد الدوام في المدارس مما مكن الأم من تبوأ دورها بيسر في المنزل، لكن مع كل ذلك بدأت مشاكل الصبي الذي أصبح فتي يافعاً تظهر بشكل مزعج وخطير وكثرت حتي أصبحت تلك المشاكل تحدث بشكل يومي.
كان الفتي في حاجة شديدة لمن يوجهه في حياته ودراسته لكن رحيل الأب كان كغياب البوصلة من يد بحار ناشئ ألقت الريح بمركبه وسط أنواء وأمواج عاتية في بحر غابت شواطئه تماماً عن الرؤية، وبالرغم من أن ذلك الفتى كان يحمل في صدره قلباً كبيراً وإحساساً مرهفًا إلا أنه كانت للشارع كلمته ولأصدقاء السوء تأثيرهم الكبير، وكانت المدرسة والعلم أولي الضحايا وأكبر الخسائر في سلسلة المآسي التي بدأت تلاحق حياة ذلك الفتى.
اهتزت أركان تلك الأسرة فرحًا حين تقدم أحد الشباب طالبًا الزواج من كبرى الصبايا التي ذهبت إلى منزل زوجها وبزواجها تخلت عمليا عن مسئولياتها تجاه أخواتها وشقيقها وأمها، لكنها كانت تحمل ذلك العبء في نفسها وروحها وقلبها وتبعها في الزواج شقيقتيها الأخريتين، وتبقي ذلك الفتي مع أمه في المنزل، وبدأت الأيام تقذف به إلى دوائر أخر من العبث بعد أن شب عن الطوق وأصبح شابا كباقي الشباب وبدأت معالم مواهبه في الشعر والفن تتضح وتبرز بشكل أوحي بأن هناك بصيصًا من الأمل ينتظر ذلك الفتي هناك على درب حياته.
وجاءت اللحظة الحاسمة بصورتها القدرية، هكذا نقول، نعم هي لحظة حاسمة ومفصل خطير ومهم يواجه الإنسان فيه مفارق طرق مجهولة المعالم ضبابية الاتجاهات والرؤية، وكل يذهب إلى ما اختارته له يد القدر أو إلى ما اختاره عقله وتفكيره ورغباته.
تلك اللحظات تولد في حياة كل إنسان مهما كانت بيئته ومجتمعه، وكلٌ على قدره وظروفه وحظه من الحياة. وكان ذلك الشاب في تلك اللحظة على موعد مع شر مستطير يتسلل إلى نفس الإنسان بنعومة الأفعي ليحطمها ببطء وقسوة ويتركها أشلاء وبقايا.
هذا الشر يسرق عمر الإنسان وحياته على كل الوجوه وفي كل الصور، المخدرات.. نعم كانت هي المخدرات في لحظة إحساس بالتجربة من يد صديق السوء، ولم يدر الشاب لماذا وكيف بل حتي لم يسأل نفسه أو يحاورها، فقد كانت لذة التجربة والشعور بحرية غير ذات معني في غياب الأب الموجه أو الإنسان المربي الذي يحاسب ويراقب وأم طيبة كباقي أمهاتنا اللائي يستهلكن عمرهن وباقي حياتهن في المنازل والزيارات والأحاديث الفارغة التي لا تخلوا من النميمة والبراءة معًاً.
وبدأت مرحلة أخري في حياة الشاب مع سموم المخدرات ورفاق السوء وزمرة الشرور، ولم يكن هناك من شيء يجمعهم ويربط بينهم سوى جلسات التعاطي والشم التي يساعد فيها كل منهم الآخر بمحقنة أو بالنوع الذي يحمله.
ومن العجيب والغريب والمثير معًا أن أخلصهم قلباً وروحاً وأكثرهم شهامة ورجولة مع باقي الناس والأهل والمعارف يتحول إلى بئر من نذالة وخساسة إذا تعلق الأمر بحاجة رفيقه في الإدمان حين يعجز ذلك الصديق عن الحصول على وجبته من السموم ويطلب من صديقه مساعدته حيث لا يملك المال الكافي للشراء، وحتى إذا كان يملك ما يكفي للشراء ولم يتيسر له أن يشتري لعدم وجود المادة المخدرة فإنه يرفض فورًا وبأساليب ملتوية ويتلذذ برؤية صديقه يعاني مذلة الحاجة والآلام البدنية الرهيبة التي تسببها حاجته لتلك السموم.
ولا مانع أبداً لو تطلب الأمر الإبلاغ عن زميله وصديقه لدي جهات الأمن المختصة بمكافحة المخدرات للقبض عليه وإلقائه في غياهب السجون.
ومع الإدمان والانغماس في هاويته زادت حاجة الشاب إلى المال لمواجهة احتياجاته المتزايدة، ولم يكن هناك ما يكفي وكانت الأم تعطيه ما توفر لديها من المال في حنان وعطف وهي لا تدري أين ينفقه ولم تكن تتأفف؛ فهو الابن الأصغر الذي يؤنس وحدتها ويملأ عليها المنزل برجولته وشبابه. لكن تسببت احتياجاته المتزايدة للمال وعدم توافر ذلك المال الكافي الذي يلح في طلبه باستمرار في تحوله إلى انحراف آخر وإلى درب زلق هو درب السرقة وسبيلها.. أي شيء يجلب المال هو في نظره أمر مشروع يخطط لسرقته وبيعه ولو بعشر قيمته.. وكالعادة كانت عيون أجهزة الأمن تراقب وتتابع، وبالفعل سقط مرة في أيدي الشرطة لكن بتهمة بيع أشياء مسروقة وعرفت قدماه السجن للمرة الأولى بتهمة السرقة، خرج بعدها ليفكر بشكل أكبر في كيفية الحصول على المال بشكل أكثر فعالية وهداه الشيطان إلى خطوته التالية وهي الاتجار في المخدرات. وبذكائه ومساعدة الشيطان وصل إلى أحد تجار السموم الذي ينتمي إلى جنسية أخري غير عربية، وزين الشيطان للشاب أحلامه وأغواه باقتحام أشد الدروب ظلامًا وحلكة. صفقة رائعة ومضمونة يزيد إيرادها عن المائة ألف ريال ومقابل ماذا؟ مقابل

العمل على توزيعها على المدمنين ولا شيء أكثر من ذلك، مسألة سهلة ليس بها أي نوع من التعب أو المجهود، هكذا خيل له الشيطان وزين له سوء عمله.
تسلم الشاب كيسًا من البلاستيك زنته 1 كيلو جرام من الهيروبين من ذلك التاجر الأسود البشرة بعد أن وقَّع إيصالا بمبلغ كبير لذلك الرجل، وذهب الشاب على الفور لينجز اتصالاته بأصدقائه وزملائه من المدمنيين، وبدأت عملية التوزيع ومعها بدأت نهاية إنسان كان من الممكن أن يكون مرموقًا في مجتمعه وبين أسرته بذكائه وعراقة أصله وموهبته في الشعر والفن. كانت عيون رجال الأمن الساهرة ترقب وتلاحظ وتجمع المعلومات دقيقة بدقيقة لتحمي المجتمع والوطن من أهوال السموم والخراب، ولتحارب بلا هوادة أعوان الشيطان من تجار السموم. وتواترت المعلومات غزيرة ومعها تحددت الليلة الأخيرة ولحظة النهاية.
وفي لحظة ظهر فيها القمر بدرًا بكت السماء حزنًا على ضياع أحد أبناء الإنسان حين غاب عقله وتلاشت إرادته ومات إيمانه، وانهمرت في تلك اللحظات دموع غالية تفجرت ينابيع حزنها من قلب أم مات ابنها وفلذة كبدها وهو حي يرزق، وضاع منها وهو بين يديها ليختفي وراء القضبان نازفًا أجمل سنين عمره وشبابه.
وبات شعره وقصائده تعكس آلامه ومشاعره وتروي قصة شاب ضال تبخرت أثمن وأغلي أيامه في درب الضلال حين أغواه الشيطان.

بسم الله الرحمن الرحيم

{ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى}.

صدق الله العظيم [طه:123

الخاتمة

تلك هي محاولتي الثانية بعد صدور مجموعتي الأولى
(حكايات على ضفاف الخليج) والتي جاءت مزيجتً من الواقع
والخيال، وقد حاولت فيها - برؤية شخصية - أن أعالج بعض
الجوانب الاجتماعية التي اعتورها القصور بسبب التغيرات
الحضارية والتطورات الهائلة التي شهدها المجتمع العربي

الخليجي خلال العقود الثلاثة الماضية، وانطلاقًا من انتمائي
لهذا المجتمع الذي خرجت للحياة من رحمه، وإيمانًا مني
بالقيم الرفيعة والمثل العليا التي أهدتها إلينا السماء
وزينت بها تراثنا وتقاليدنا العريقة، لعلى بها أكون قد
ساهمت في دعم جدار الفضيلة وحماية كنوز القيم الرفيعة
التي تحلي بها مجتمعنا العربي المسلم على مر التاريخ.
ومعذرة إن شاب عملي قصور، وتحية حب وتقدير لكل القراء.

محمد عبد العزيز أحمد الباك

نفحات من أريج الفكر

الأبناء هم قرة العيون ورجال المستقبل الذي نفني أعمارنا في سبيل
بنائهم وإعدادهم لحمل مشاعل الحضارة والتقدم ورايات الدفاع والذود عن
شرف الأمة ومستقبلها وزرع الثقة في شرايين أبنائنا من أجل مستقبل
واعد ومشرق.

إن التعصب الأعمى المستند إلى عادات عقيمة ومتحجرة دلالة على
اهتزاز الثقة في النفس والخوف من التطور والتجديد، مما يدفع المجتمع
إلى هاوية التخلف وضياع المستقبل.

لا يوجد إنسان على ظهر الأرض إلا وتتنازعه الرغبة في الغني. لكن يبقي
هناك سؤال ملح وهو: أي غني يقصدون؟ هل هو المال أم الصحة أم
الأولاد أم العقل؟
ويظل الصراع مع الزمن إلى أن ينهيه جدار الموت.

الحب باقة ياسمين ينساب أريجها العطر داخل النفوس المتبعة والقلوب
الواهنة ليزرع فيها الأمل ويغسل ما علق بها من متاعب الحياة.

الدين نفحة إلهية وشريعة سماوية لبني البشر ورحمة مهداة لتقليم أظافر
الشر ومخالب الخطيئة. وغرس بذور الطمأنينة ودفء الإنسانية في
مسافات الزمن بين الميلاد والموت.

كم هو رائع أن يتسامح الفرد إزاء هفوات الآخرين؟ وكم هو عظيم أن
تتعطر القلوب الدافئة بالغفران وتتطهر النفوس الشريرة بالتسامح؟

الوفاء قيمة إنسانية رفيعة تظل أملا يظلل سماء الإنسانية من هجير الحياة، وتدفع الإنسان دائمًا صوب الجانب الأخلاقي الرفيع، وبدونها تصبح الكلاب المالك الحقيقي لها.

الحقد مرض لا يصيب إلا ضعفاء النفوس والعاجزين عن ملاحقة النجاح. وهو يولد من رحم الفشل وعجز الإرادة. فلنقوي عزيمتنا بالإيمان، ولنحول الفشل إلى نجاح بصلابة الإرادة وتصميم المقاتل.

ثقافة الإنسان ليست في معرفته بقدر ما هي في مدي التأثير الذي تتركه تلك المعرفة في حضارة الإنسان وسلوكه في الحياة.

الخيال لحظة حالمة ينتزع الإنسان فيها نفسه من واقعه البارد هاربًا إلى الدفء في ظلال الذاكرة ليصنع عالمًا آخر من الأمن والسحر والجمال.

ملذات الحياة هي أجمل ما تحتويه مائدة الكون لكن يبقي ما هو أغلي، وهو ما يدفعه الإنسان ثمنًا لتلك الملذات.

الإيمان هو قمة الإدراك الإنساني ولحظة الشفافية العظيمة التي تتضاءل أمامها جبال الصخر وتلال الذهب على السواء، وتنهار أمامها قلاع الظلم وجبروت الطغيان.

المجتمعات المتطورة هي التي تساير حركة الحياة ولا تتجمد في حركتها عند بعض التقاليد البالية والعادات التي أصبحت في ذمة التاريخ ودهاليز الماضي.

نحن نعلم الحقائق علم اليقين ولكننا لا نريد أن نصدق، ونعلم أخطاءنا أيضًا ولكننا لا نتجنبها، والأسوأ من ذلك أننا حين نتكلم ندعوا إلى التزام الصواب وتجنب الخطأ.

طموح الإنسان هو الذي يصنع الثروة، والثروة بلا قيم وإيمان تدفع الإنسان إلى الهاوية فهي كالوحش الذي ينتزع بمخالبه أجمل ما في الحياة من قيم إنسانية رفيعة.

إن على القلوب المتعبة والملوثة بالحقد أن تعلم أن الظلام وديا جيره يتبعه بزوغ الفجر وضوء الشمس الذي ينعكس على القلوب والعقول نوراً وبصيرة، فلنطهر قلوبنا بالإيمان وعقولنا بالحكمة ونور الحق.

المال هو زينة الحياة ومتعتها إذا تعلم الإنسان كيف ينفقه، ولعنة الحياة وشرها إذا تعلم الإنسان فقط كيف يجمعه. فلنتعلم كيف ننفق حتى لا تتسرب منا قطرات الحياة ونقبض على الوهم في لحظات النهاية.

الأغبياء فقط هم الذين لا يتركون بصماتهم على واقع الحياة، ولا يدعون

في حياتهم ما يجعل الآخرين يتذكرونهم به. فلنجعل حياتنا أهزوجة للحب وقصيدة للخلود

العقل درة الإنسان ودليل انتمائه إلى دائرة الإنسانية وهو السبيل الأمثل للوصول إلى القمة لو أحسن استغلاله، وإلى درك الجحيم إن اختل توازنه.

الخوف لحظة تتجمد فيها المشاعر وتتجسد فيها الكراهية للزمن، وفيها يقترب الإنسان من الشر إلى حد التلاصق حين يطحنه اليأس ويعتصره الإحباط.

يظل العلم مشعلاً من نور تهتدي به البشرية وتنتزع به نفسها من بين ركام الجهل والتخلف، وسبيلاً إلى الأحلام العظيمة في المستقبل.
ويظل أيضًا شعلة من نار تهدد البشرية بالفناء وسبيلاً إلى الهدم والدمار.
المبادئ هي الدستور الحقيقي الذي يتلمسه الأسوياء ويسير على دربه الشرفاء، متمسكين بأهداب الفضيلة وملتزمين بمثلها العليا لتحقيق الأهداف النبيلة لصالح مجتمعهم وأمتهم.

يجب أن يرتبط الأدب والإبداع بقضايا المجتمع وهمومه، وقدر الكاتب الذي خرج من رحم المجتمع ومن صلبه أن يلمس بفنه وإبداعه معاناة مجتمعه ومعالجة قضاياه.

الظلم هو إحدى حقائق الحياة التي تعايشها البشرية وتئن من قسوتها، ويظل الظالمون سادرين في غيهم إلى أن يرتفع سيف الحق والعدل ليعيد الأمور إلى نصابها والحق إلى أصحابه.

إن التلفاز هو الخطيئة المشروعة داخل بيوتنا، وهو الوحش الكاسر الذي يلتهم عقول أطفالنا ويؤثر بالضرورة في مستقبل مجتمعاتنا، وهو أيضًا المعلم العظيم ورسول المعرفة والعلم والقيم إذا أحسن توجيهه.

القانون هو سيد العلاقات بين البشر، وهو الحاجز الاجتماعي بين الظلم والعدل وسلاح الضعفاء ودرع الأغنياء.

إن الذين يسقطون في حبائل الإدمان على المخدرات إنما يسقطون في هوة قاعها الدمار ونهايتها الموت والهلاك. ويجب على الأسرة أولاً ثم المجتمع أن يقاتل بشراسة من أجل حماية الأمة والحفاظ على مستقبلها وقيمها.

إن أي مقال مهما أوتي من بلاغة لا يصبح ذا قيمة حقيقية إلا إذا أدركه الناس وبدءوا العمل به.

إن آدمية الإنسان وأخلاقياته تعد الأساس الأول لأي بناء حضاري وكل ما عداها يعتبر قشورًا للإنسانية ومظاهر كاذبة للأخلاق.

إن أعلى الأسوار وأضيق النوافذ وأشد أساليب الرقابة لن تمنع فتاة من انحرافها إذا أرادت، وإن أعتي الرجال لن يستطيع أن يغرر بفتاة طاهرة إن شاءت.

يجب على المجتمع العربي الخليجي المسلم أن يناقش قضية المرأة بين السفور والحجاب برؤية وموضوعية بعيدًا عن الانفعال والتطرف وانطلاقًا من الصالح العام ومراعاة الخيط الرقيق الذي يفصل ويفرق بين ما هو مشروع في عقيدتنا وبين ما هو خارج عليها.

المرأة هي حديقة الحياة، والأولاد هم زهورها وزينتها لكن هذا لا يمنع وجود الأشواك في بعض أشجار الحديقة وبعض المرارة في ثمارها فلنقبل بعض المرارة من أجل الحديقة وزهورها.

ما أروع المرأة التي تتفجر بالحب والنعومة والأنوثة! وما أعظمها حين تقف خلف الرجل سنداً وحين تذوب داخله قوة! وما أتعس الحياة حين ترتبط بامرأة سيئة الخلق، رديئة الطباع والمعدن، قبيحة اللفظ والسلوك!

ما أعظم الشعور الجارف بالأمان للخائفين! وما أروع الإحساس بالطمأنينة! إن الأمن والطمأنينة هما عنصران أساسيان لتقدم المجتمعات ونبوغ عقولها وتطور فنونها، ومع الخوف والقلق يصبح كل ما في الحياة من جمال معرضاً للدمار والضياع.

إن على الذين يسيئون إلى والديهم أن يعلموا أنهم سيواجهون أسوأ المصير في دنياهم؛ لأنهم فقدوا أعظم وأزكى المشاعر الإنسانية وسيواجهون في الآخرة بجهنم وبئس المصير.

الموت هو الحقيقة الغائبة التي نكره أن نتذكرها برغم أنها ماثلة ومجسدة أمام عيوننا وسيفاً مسلطاً على رقابنا بفضل نعمة النسيان، لكن برغم ذلك تظل الحقيقة ويكون الموت.

القراءة هي النافذة التي يطل منها الإنسان ليري بعقله ووعيه الماضي السحيق والقريب، والتي يرتوي من خلالها عصارة الفكر الإنساني العظيم والتجارب الإنسانية ليتعلم كيف يصنع غده ويطمئن على مستقبله.

إن الانحراف عن جادة الصواب هو المقدمة التي تتوالى بعدها سلسلة لا نهائية من الخطايا ويندفع الإنسان المنحرف بقوتها صوب الهاوية.

الفنون هي نتاج المواهب والإبداع الإنساني على مر العصور، وتعتبر الفنون إحدى القوي الرئيسية المحركة للمجتمعات الإنسانية نحو التطور في الوقت الذي تستمد فيه تواصلها من تلك المجتمعات.

إن الذين تعلموا كيف يجمعون الذهب وتعلموا أيضًا كيف يكنزونه، عليهم

أن يتعلموا كيف يستمتعون بحياتهم وإلا فإنهم سيجدون أنفسهم في
النهاية وجهاً لوجه مع حائط الموت ووهم السراب.

إن الذين يمنحون أنفسهم حق الذم في الآخرين إنما هم مرضي
ونفوسهم ملوثة بالإثم، وهم يسيئون إلى أنفسهم أولاً قبل أن يسيئوا إلى
الآخرين.

إن أي مجتمع تحكمه عادات بالية وتقاليد غير قابلة للتطور ومسايرة
الركب الإنساني والحضاري، محكوم عليه بالجمود والتحجر ومعرَّض
بالتالى للتخلف والضياع.

ألف ريال ومقابل ماذا؟ مقابل العمل على توزيعها على المدمنين ولا شيء أكثر من ذلك، مسألة سهلة ليس بها أي نوع من التعب أو المجهود، هكذا خيل له الشيطان وزين له سوء عمله.

تسلم الشاب كيسًا من البلاستيك زنته 1 كيلو جرام من الهيروبين من ذلك التاجر الأسود البشرة بعد أن وقَّع إيصالا بمبلغ كبير لذلك الرجل، وذهب الشاب على الفور لينجز اتصالاته بأصدقائه وزملائه من المدمنيين، وبدأت عملية التوزيع ومعها بدأت نهاية إنسان كان من الممكن أن يكون مرموقًا في مجتمعه وبين أسرته بذكائه وعراقة أصله وموهبته في الشعر والفن. كانت عيون رجال الأمن الساهرة ترقب وتلاحظ وتجمع المعلومات دقيقة بدقيقة لتحمي المجتمع والوطن من أهوال السموم والخراب، ولتحارب بلا هوادة أعوان الشيطان من تجار السموم. وتواترت المعلومات غزيرة ومعها تحددت الليلة الأخيرة ولحظة النهاية.

وفي لحظة ظهر فيها القمر بدرًا بكت السماء حزنًا على ضياع أحد أبناء الإنسان حين غاب عقله وتلاشت إرادته ومات إيمانه، وانهمرت في تلك اللحظات دموع غالية تفجرت ينابيع حزنها من قلب أم مات ابنها وفلذة كبدها وهو حي يرزق، وضاع منها وهو بين يديها ليختفي وراء القضبان نازفًا أجمل سنين عمره وشبابه.

وبات شعره وقصائده تعكس آلامه ومشاعره وتروي قصة شاب ضال تبخرت أثمن وأغلي أيامه في درب الضلال حين أغواه الشيطان.

[{فَمَــنِ اتَّبَــعَ هُــدَايَ فَلا يَضِــلُّ وَلَا يَشْقَــى} ^ (طه:123)

الخاتمة

تلك هي محاولتي الثانية بعد صدور مجموعتي الأولى (حكايات على ضفاف الخليج) والتي جاءت مزيجتً من الواقع والخيال، وقد حاولت فيها - برؤية شخصية - أن أعالج بعض الجوانب الاجتماعية التي اعتورها القصور بسبب التغيرات الحضارية والتطورات الهائلة التي شهدها المجتمع العربي الخليجي خلال العقود الثلاثة الماضية، وانطلاقًا من انتمائي لهذا المجتمع الذي خرجت للحياة من رحمه، وإيمانًا مني بالقيم الرفيعة والمثل العليا التي أهدتها إلينا السماء وزينت بها تراثنا وتقاليدنا العريقة، لعلى بها أكون قد ساهمت في دعم جدار الفضيلة وحماية كنوز القيم الرفيعة التي تحلي بها مجتمعنا العربي المسلم على مر التاريخ.

ومعذرة إن شاب عملي قصور، وتحية حب وتقدير لكل القراء.

محمد عبد العزيز أحمد الباكر

نفحات من أريج الفكر

الأبناء هم قرة العيون ورجال المستقبل الذي نفني أعمارنا في سبيل بنائهم وإعدادهم لحمل مشاعل الحضارة والتقدم ورايات الدفاع والذود عن شرف الأمة ومستقبلها وزرع الثقة في شرايين أبنائنا من أجل مستقبل واعد ومشرق.

إن التعصب الأعمى المستند إلى عادات عقيمة ومتحجرة دلالة على اهتزاز الثقة في النفس والخوف من التطور والتجديد، مما يدفع المجتمع إلى هاوية التخلف وضياع المستقبل.

لا يوجد إنسان على ظهر الأرض إلا وتتنازعه الرغبة في الغني. لكن يبقي هناك سؤال ملح وهو: أي غني يقصدون؟ هل هو المال أم الصحة أم الأولاد أم العقل؟

ويظل الصراع مع الزمن إلى أن ينهيه جدار الموت.

الحب باقة ياسمين ينساب أريجها العطر داخل النفوس المتبعة والقلوب الواهنة ليزرع فيها الأمل ويغسل ما علق بها من متاعب الحياة.

الدين نفحة إلهية وشريعة سماوية لبني البشر ورحمة مهداة لتقليم أظافر الشر ومخالب الخطيئة. وغرس بذور الطمأنينة ودفء الإنسانية في مسافات الزمن بين الميلاد والموت.
كم هو رائع أن يتسامح الفرد إزاء هفوات الآخرين؟ وكم هو عظيم أن تتعطر القلوب الدافئة بالغفران وتتطهر النفوس الشريرة بالتسامح؟
الوفاء قيمة إنسانية رفيعة تظل أملا يظلل سماء الإنسانية من هجير الحياة، وتدفع الإنسان دائمًا صوب الجانب الأخلاقي الرفيع، وبدونها تصبح الكلاب المالك الحقيقي لها.
الحقد مرض لا يصيب إلا ضعفاء النفوس والعاجزين عن ملاحقة النجاح. وهو يولد من رحم الفشل وعجز الإرادة. فلنقوي عزيمتنا بالإيمان، ولنحول الفشل إلى نجاح بصلابة الإرادة وتصميم المقاتل.
ثقافة الإنسان ليست في معرفته بقدر ما هي في مدي التأثير الذي تتركه تلك المعرفة في حضارة الإنسان وسلوكه في الحياة.
الخيال لحظة حالمة ينتزع الإنسان فيها نفسه من واقعه البارد هاربًا إلى الدفء في ظلال الذاكرة ليصنع عالمًا آخر من الأمن والسحر والجمال.
ملذات الحياة هي أجمل ما تحتويه مائدة الكون لكن يبقي ما هو أغلي، وهو ما يدفعه الإنسان ثمنًا لتلك الملذات.
الإيمان هو قمة الإدراك الإنساني ولحظة الشفافية العظيمة التي تتضاءل أمامها جبال الصخر وتلال الذهب على السواء، وتنهار أمامها قلاع الظلم وجبروت الطغيان.
المجتمعات المتطورة هي التي تساير حركة الحياة ولا تتجمد في حركتها عند بعض التقاليد البالية والعادات التي أصبحت في ذمة التاريخ ودهاليز الماضي.
نحن نعلم الحقائق علم اليقين ولكننا لا نريد أن نصدق، ونعلم أخطاءنا أيضًا ولكننا لا نتجنبها، والأسوأ من ذلك أننا حين نتكلم ندعوا إلى التزام الصواب وتجنب الخطأ.
طموح الإنسان هو الذي يصنع الثروة، والثروة بلا قيم وإيمان تدفع الإنسان إلى الهاوية فهي كالوحش الذي ينتزع بمخالبه أجمل ما في الحياة من قيم إنسانية رفيعة.
إن على القلوب المتعبة والملوثة بالحقد أن تعلم أن الظلام ودياجيره يتبعه بزوغ الفجر وضوء الشمس الذي ينعكس على القلوب والعقول نوراً وبصيرة، فلنطهر قلوبنا بالإيمان وعقولنا بالحكمة ونور الحق.
المال هو زينة الحياة ومتعتها إذا تعلم الإنسان كيف ينفقه، ولعنة الحياة وشرها إذا تعلم الإنسان فقط كيف يجمعه. فلنتعلم كيف ننفق حتى لا تتسرب منا قطرات الحياة ونقبض على الوهم في لحظات النهاية.
الأغبياء فقط هم الذين لا يتركون بصماتهم على واقع الحياة، ولا يدعون في حياتهم ما يجعل الآخرين يتذكرونهم به. فلنجعل حياتنا أهزوجة للحب وقصيدة للخلود العقل درة الإنسان ودليل انتمائه إلى دائرة الإنسانية وهو السبيل الأمثل للوصول إلى القمة لو أحسن استغلاله، وإلى درك الجحيم إن اختل توازنه.
الخوف لحظة تتجمد فيها المشاعر وتتجسد فيها الكراهية للزمن، وفيها يقترب الإنسان من الشر إلى حد التلاصق حين يطحنه اليأس ويعتصره الإحباط.
يظل العلم مشعلاً من نور تهتدي به البشرية وتنتزع به نفسها من بين ركام الجهل والتخلف، وسبيلاً إلى الأحلام العظيمة في المستقبل.
ويظل أيضًا شعلة من نار تهدد البشرية بالفناء وسبيلاً إلى الهدم والدمار.
المبادئ هي الدستور الحقيقي الذي يتلمسه الأسوياء ويسير على دربه الشرفاء، متمسكين بأهداب الفضيلة وملتزمين بمثلها العليا لتحقيق الأهداف النبيلة لصالح مجتمعهم وأمتهم.
يجب أن يرتبط الأدب والإبداع بقضايا المجتمع وهمومه، وقدر الكاتب الذي خرج من رحم المجتمع ومن صلبه أن يلمس بفنه وإبداعه معاناة مجتمعه ومعالجة قضاياه.
الظلم هو إحدى حقائق الحياة التي تعايشها البشرية وتئن من قسوتها،
ويظل الظالمون سائرين في غيهم إلى أن يرتفع سيف الحق والعدل ليعيد الأمور إلى نصابها والحق إلى أصحابه.
إن التلفاز هو الخطيئة المشروعة داخل بيوتنا، وهو الوحش الكاسر الذي يلتهم عقول أطفالنا ويؤثر بالضرورة في مستقبل مجتمعاتنا، وهو أيضًا المعلم العظيم ورسول المعرفة والعلم والقيم إذا أحسن توجيهه.
القانون هو سيد العلاقات بين البشر، وهو الحاجز الاجتماعي بين الظلم والعدل وسلاح الضعفاء ودرع الأغنياء.
إن الذين يسقطون في حبائل الإدمان على المخدرات إنما يسقطون في هوة قاعها الدمار ونهايتها الموت واهلاك. ويجب على الأسرة أولاً ثم المجتمع أن يقاتل بشراسة من أجل حماية الأمة والحفاظ على مستقبلها وقيمها.
إن أي مقال مهما أوتي من بلاغة لا يصبح ذا قيمة حقيقية إلا إذا أدركه الناس وبدءوا العمل به.

إن آدمية الإنسان وأخلاقياته تعد الأساس الأول لأي بناء حضاري وكل ما عداها يعتبر قشورًا للإنسانية ومظاهر كاذبة للأخلاق.
إن أعلى الأسوار وأضيق النوافذ وأشد أساليب الرقابة لن تمنع فتاة من انحرافها إذا أرادت، وإن أعتي الرجال لن يستطيع أن يغرر بفتاة طاهرة إن شاءت.

يجب على المجتمع العربي الخليجي المسلم أن يناقش قضية المرأة بين السفور والحجاب برؤية وموضوعية بعيدًا عن الانفعال والتطرف وانطلاقًا من الصالح العام ومراعاة الخيط الرقيق الذي يفصل ويفرق بين ما هو مشروع في عقيدتنا وبين ما هو خارج عليها.
المرأة هي حديقة الحياة، والأولاد هم زهورها وزينتها لكن هذا لا يمنع وجود الأشواك في بعض أشجار الحديقة وبعض المرارة في ثمارها فلنقبل بعض المرارة من أجل الحديقة وزهورها.
ما أروع المرأة التي تتفجر بالحب والنعومة والأنوثة! وما أعظمها حين تقف خلف الرجل سنداً وحين تذوب داخله قوة! وما أتعس الحياة حين ترتبط بامرأة سيئة الخلق، رديئة الطباع والمعدن، قبيحة اللفظ والسلوك!
ما أعظم الشعور الجارف بالأمان للخائفين! وما أروع الإحساس بالطمأنينة! إن الأمن والطمأنينة هما عنصران أساسيان لتقدم المجتمعات ونبوغ عقولها وتطور فنونها، ومع الخوف والقلق يصبح كل ما في الحياة من جمال معرضاً للدمار والضياع.
إن على الذين يسيئون إلى والديهم أن يعلموا أنهم سيواجهون أسوأ المصير في دنياهم؛ لأنهم فقدوا أعظم وأزكى المشاعر الإنسانية وسيواجهون في الآخرة بجهنم وبئس المصير.
الموت هو الحقيقة الغائبة التي نكره أن نتذكرها برغم أنها ماثلة ومجسدة أمام عيوننا وسيفاً مسلطاً على رقابنا بفضل نعمة النسيان، لكن برغم ذلك تظل الحقيقة ويكون الموت.
القراءة هي النافذة التي يطل منها الإنسان ليري بعقله ووعيه الماضي السحيق والقريب، والتي يرتوي من خلالها عصارة الفكر الإنساني العظيم والتجارب الإنسانية ليتعلم كيف يصنع غده ويطمئن على مستقبله.
إن الانحراف عن جادة الصواب هو المقدمة التي تتوالى بعدها سلسلة لا نهائية من الخطايا ويندفع الإنسان المنحرف بقوتها صوب الهاوية.
الفنون هي نتاج المواهب والإبداع الإنساني على مر العصور، وتعتبر الفنون إحدى القوي الرئيسية المحركة للمجتمعات الإنسانية نحو التطور في الوقت الذي تستمد فيه تواصلها من تلك المجتمعات.
إن الذين تعلموا كيف يجمعون الذهب وتعلموا أيضًا كيف يكنزونه، عليهم أن يتعلموا كيف يستمتعون بحياتهم وإلا فإنهم سيجدون أنفسهم في النهاية وجهاً لوجه مع حائط الموت ووهم السراب. إن الذين يمنحون أنفسهم حق الذم في الآخرين إنما هم مرضي ونفوسهم ملوثة بالإثم، وهم يسيئون إلى أنفسهم أولاً قبل أن يسيئوا إلى الآخرين.
إن أي مجتمع تحكمه عادات بالية وتقاليد غير قابلة للتطور ومسايرة الركب الإنساني والحضاري، محكوم عليه بالجمود والتحجر ومعرَّض بالتالى للتخلف والضياع.